التضايف في النص القرآني

دراسة في الاستلزام الدلالي

دار الولاء
لصناعة النشر

الرويس، شارع الرويس، بيروت - لبنان
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133
info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com
P.O. Box: 307/25 | www.daralwalaa.com

ISBN 978-614-420-700-0

التضايف في النص القرآني

دراسة في الاستلزام الدلالي

المؤلف: الدكتور أحمد رسن.

الناشر: دار الولاء لصناعة النشر.

الطبعة: الأولى بيروت_لبنان ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م.

إخراج فني وتنفيذ:

eight press & production

www.8eightproduction.com | 00961 3 017 565

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدكتور أحمد رسن

التضايف في النص القرآني

دراسة في الاستلزام الدلالي

دار الولاء
لصناعة النشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المقدَّمة ٧

المدخل ٩

تعريف التَّضايف ٩

استنتاجات ١٥

الفصل الأول: فاعلية الأسماء الحسنى ١٧

١ ـ الخالق والمخلوق ١٨

٢ ـ الربّ والمربوب ٥٠

٣ ـ الرَّازق والمرزوق ٦٤

٤ ـ المالك والمملوك ٧٤

الفصل الثَّاني: أسماء التَّضايف الاجتماعي ٨١

١ ـ الزّوج والزّوجة ٨٢

٢ ـ الأب والابن ٨٥

٣ ـ الأخ وأخوه ٩٠

٤ ـ الصَّاحب وصَّاحبه ٩٦

٥ ـ القرين وقرينه ١٠٢
٦ ـ الظالم والمظلوم ١٠٥
٧ ـ العدو وعدوه ١١٤
٨ ـ القاتل والمقتول ١٢١
الفصل الثالث: نسق التَّضايف ١٢٧
ماهيّة النَّسق ١٢٧
سورة الفاتحة ١٢٨
سورة يوسف ١٣٠
سورة فصّلت ١٤٠
سورة الشُّورى ١٤٦
سورة التكاثر ١٤٩
سورة الهُمزة ١٥٠
سورة الفيل ١٥٢
النتائج ١٥٥
المصادر والمراجع ١٥٧

المقدَّمة

إنَّ النَّص القرآني يُعطي على قدرِ استيعابِ العقول في مجال الفهم البشري بشرط التَّأمّل في لغته والأخذ منه مباشرةً؛ فإنَّ معانيَه واضحةٌ مقنِعةٌ. وهذه الدّراسةُ قطرةٌ من عطاءِ القرآن الوفير. أحاولُ فيها أنْ أصفَ البيانَ القرآني الذي يتحدّثُ عن الخالق والمخلوق أو فيما بين الخلْق أنفسهم. ويكشف علاقاتٍ كثيرةً بينهما أعجزُ عن تعدادِها. بل أعجز عن فهمها وإدراكها جميعًا. وإنّما يكفيني محاولةُ فهمِ الظاهر منها. وأمّا الباطنُ الخفي فله باحثون يفهمونه.

تلك العلاقاتُ النَّاشئةُ في الوجود الخارجي تجلّت في القرآن بلغةٍ عربيةٍ سهلةٍ تعبّرُ بوضوح. وتجدُ الكلمةَ أو الجملةَ أو النَّصَ تدلُّ على تلك الرَّوابط الدّلاليّة الموجبة وجودَ طرفين في تحقّق معناها. ومصطلحُ التَّضايف يشملُ هذه العلاقاتِ والرَّوابطَ ما أوجب عليّ أنْ أحيلَ على تعريفه عند الدَّارسين في المدخل. ثم بدأتُ الفصلَ الأولَ بتبيين أصالة الأسماء الحسنى المؤثرة في إيجاد التَّضايف؛ لأنَّها دالةٌ على اللّه الذي اتّصف بها، فتأخذ أصالتَها من وجوده الأصيل المهيمن على أشكال الوجود الأُخَر.

وقد أوجدتْ تلك الأسماءُ الإلهيّةُ آثارَها وأفعالَها في الخلق ما حقّق علاقاتٍ كثيرةً كالخلق والتَّربية والرَّزق وغيرها. وكان عليَّ

في الفصل الثَّاني أنْ أكملَ البيانَ عن التَّضايف في وجود المجتمع بتوضيح علاقات الإنسان بمجتمعه؛ لأنّ الإنسانَ مخلوقٌ يستطيع باختياره أنْ يُوجدَ علاقاتٍ مع غيره كالأخوّة والصَّداقة والعداوة وغيرها. واقتضى الاتّساعُ الدّلالي للتَّضايف وتعدّدُ علاقاته أنْ أذكرَ في الفصل الثَّالث النَّسقَ المؤسَّسَ على ترابط تلك العلاقات فيما بينها في عددٍ من السُّور القرآنيّة. وأنهيتُ الدّراسةَ بنتائجَ أوجدها هذا النَّصُ الكريمُ بهداية اللّه تعالى وتوفيقه، فله الحمدُ والشّكرُ. وأشكرُ جميعَ العلماء والباحثين الذين أفدتُ من دراساتِهم.

أحمد

الجمعة ٢٦/ ١١/ ٢٠٢١

المدخل

تعريف التَّضايف

حاولت الدّراسات الدّلالية والمنطقية والفلسفيّة أنْ تنالَ حقيقةَ التَّضايف، وتُقرّبَه من وعينا تحت تسميات متعدّدة. فأقدّم تصوراتها، وأحلّلها حتى أصِلَ إلى المعنى الدّقيق. وأحاول أنْ أُجري تحليلًا نصّيًّا يكشفُ أثرَ تقابل التَّضايف في فهم النَّص القرآني ومدى حضوره في سطح النَّص وعمقه الممكن أنْ يفهمه مثلي. فأذكر ما اطّلعتُ عليه من دراسات مفيدة حدّدت المصطلحَ فيما يأتي:

أولًا التَّعريف اللّساني الدَّلالي

١ - تعريف جون لاينز

أطلق لاينز «التَّعاكسَ» على العلاقة النَّاشئة بين الكلمات التي بينها تضاد تضايف. وقد عرّفها بأنّها «العلاقة الموضعية التي غالبًا ما توصف بالتَّضاد هي تلك القائمة بين يشتري ويبيع أو زوج وزوجة. وسنستعمل لفظة تعاكس للإشارة إلى هذه العلاقة. فكلمة يشتري معاكسة لـ «يبيع» وكلمة يبيع معاكسة لـ «يشتري»»[1].

(١) علم الدَّلالة جون لاينز: ١٠٦.

٢ ـ تعريف بالمر

سمّاه بالمر التَّضادَ العلائقي، قال: «أزواج كلمات تظهر علاقة تبادلية بين الألفاظ... والأمثلة هي يشتري/ يبيع وزوج/ زوجة. فإذا باع جون إلى فريد، فإنّ فريد يشتري من جون. وإنْ كان بِل زوج ماري فإنّ ماري زوجة بِل. يقترح لاينز (١٩٦٨) لفظة تباين لها. إلا أنني مهتم أكثر بتحديد خواصها العلائقية بالدرجة الأولى، وبهذا سأشير إليها بالتضاد العلائقي»[١].

٣ ـ تعريف د. أحمد مختار

استعمل د. أحمد مصطلحَ «العكس». ونصَّ على معناه مع أمثلته المتداولة. فقال: «العكس... وهو علاقة بين أزواج من الكلمات مثل: باع اشترى، وزوج زوجة. فلو قلنا إنّ محمد* باع منزلًا لعلي فينبغي هذا أنّ عليًّا اشترى منزلًا من محمد. ولو قلنا: محمد زوج فاطمة، فهذا يعني أن فاطمة زوجة محمد. ولو قلنا: محمد والد علي فإن هذا يعني أن عليًّا والد محمد»[٢].

٤ ـ تعريف د. أمين الخولي

سمّاه الخولي «التَّضادَ العكسي»، وأكّد التَّلازم بين الطرفين «التضاد العكسي يستوجب التلازم بين الضدين. فلا بيع من غير شراء، ولا تعليم من غير تعلّم، ولا زوج من غير زوجة... ويلاحظ

(١) علم الدَّلالة ـ بالمر: ١١٣.

(٢) علم الدلالة ـ أحمد مختار: ١٠٣.

وجود علاقة تبادلية بين طرفين»[١].

تشتمل هذه التَّعريفات على المكونات الآتية:

١ ـ التَّعاكس صيغتُه الصَّرفيّةُ دالّةٌ على تفاعل بين طرفين.

٢ ـ الطرفان كلمتان يُشترط وجودهما؛ لإيجاد التَّعاكس. وإنْ استعملت إحداهما دلّت على الثَّانية بالملازمة.

٣ ـ هو علاقة معنويّة بين كلمتين بينهما إضافة. وهما اسمان أو فعلان.

٤ ـ إنّ الدَّلالة بين الطَّرفين ليست تطابقيّة، ولا تضمنيّة؛ لتقابل المعنيين. فهي التزاميّة، إذ «تقوم بنية التضايف على وجود علاقة منطقية تجمع بين مفهومين يستدعي أحدهما الآخر»[٢]. واللّزوم الذّهني شرط لتحقّق الدَّلالة الالتزاميّة، فهو «كونه بحيث يلزم من تصور المسمى في الذهن تصوره فيه فيتحقّق الانتقال منه إليه كالزّوجية للاثنين... واللزوم الخارجي كونه بحيث يلزم من تحقّق المسمى في الخارج تحقّقه فيه، ولا يلزم من ذلك انتقال الذهن كوجود النهار لطلوع الشمس»[٣]؛ فتصوّر معنى أحد المتَّقابلين يلزم منه تصوّرُ المعنى المقابل «أو لا يعقل كل منهما إلا مع الآخر»[٤]. وقُسمت الأمثلة المتداولة للتضايف في علم الدَّلالة على أربعة أنواع[٥].

(١) علم الدَّلالة ـ الخولي ١١٩.

(٢) الظاهراتية وفلسفة اللغة «تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية- عز العرب لحكيم: ١٠٠.

(٣) التّعريفات ـ الشريف الجرجاني: ١٩١.

(٤) التّعريفات: ١٩٨.

(٥) ينظر: التقابل الدّلالي دراسة نظريّة تطبيقية في سورة النّساء ـ د. نوال بنت إبراهيم: ١٥٧.

١ ـ الأفعال: أعطى/ أخذ.

٢ ـ الأسماء: مدرس/ طالب.

٣ ـ الظروف المكانية: فوق/ تحت.

٤ ـ بعض المصطلحات النحوية: مبني للمعلوم/ مبني للمجهول.

وهذه القسمة غير دقيقة؛ لأنَّ الظروفَ المكانية داخلةٌ تحت مفهوم الأسماء في الرُّؤية النَّحوية الصَّحيحة بناء على أساس دلالة الكلمة على معنى. وكذلك المصطلحات النَّحوية هي أسماء. فيكون التقسيم ثنائيًّا:

١ ـ الأفعال: أعطى/ أخذ...

٢ ـ الأسماء: مدرس/ طالب. وفوق/ تحت. ومبني للمعلوم/ مبني للمجهول.

أو يكون التَّقسم على أساس كون الكلمة مصطلحًا أو غيرَ مصطلح:

١ ـ غير المصطلح يشمل:

أ. الأسماء: مدرس/ طالب. وفوق/ تحت...

ب. الأفعال: أعطى/ أخذ...

٢ ـ المصطلح: مبني للمعلوم/ مبني للمجهول. والتَّقابل ليس بين الفعلين بل «في ركني الحدث (الفاعل والمفعول به) ففعل (ضُرِبَ ليس مقابلًا للفعل (ضَرَبَ)، إنّه تقابل بين من أوقع الفعل ومن وقع الفعل عليه»[1].

(١) تأملات في فلسفة اللغة خصوصية اللغة العربية وإمكاناتها د. عمر ظاهر: ١٩٨.

ثانيًا التَّعريف المنطقي

يضع المناطقةُ تقابلَ التَّضايف تحت مفهوم عام هو التَّقابلُ الذي حدّده المظفرُ بقوله: «المتقابلان هما المعنيان المتنافران اللذانِ لا يجتمعان

في محل واحد من جهة واحدة في زمان واحد، كالإنسان واللاإنسان. والأعمى والبصير، والأبوة والبنوة، والسَّواد والبياض»[١]. والتَّقابل أقسام[٢] هي:

١ ـ تقابل النَّقيضين مثل: منير وغير منير.

٢ ـ تقابل الملكة وعدم الملكة مثل: البصر والعمى.

٣ ـ تقابل الضدَّين مثل: السَّواد والبياض.

٤ ـ تقابل المتضايفين كالأب والابن. وهذا هو محور الدّراسة الأساس.

١ ـ تعريف الشريف الجرجاني:

«التضايف: كون الشيئين بحيث يكون تعلق كل واحد منهما سببًا لتعلق الآخر به كالأبوة والبنوة. التضايف: هو كون تصور كل واحد من الأمرين موقوفًا على تصور الآخر»[٣].

(١) المنطق: المظفر: ٤٧.

(٢) ينظر: نفسه: ٤٧.

(٣) التعريفات: ٦٤.

٢ ـ تعريف المظفر:

«بأنّهما الوجوديان اللذانِ يتعقلان معًا ولا يجتمعان في موضوع واحد من جهة واحدة ويجوز أنْ يرتفعا»[١]. يتّصف التَّضايف بضرورة وجود طرفين، وبضرورة تصوّر الآخر «فالأبوة تقتضي وجود البنوة؛ لأنّ تصوّر أحدهما متوقف على تصور الآخر. فلكي يتحقّق التضايف لا بد من وجود طرفين أُضيف أحدهما إلى الآخر»[٢].

ثالثًا التَّعريف الفلسفي

عرّف صدرُ الدّين الشّيرازي المتضايفين بقوله: «تقابل التضايف والمتضايفان هما وجوديان يعقل كل منهما بالنسبة إلى الآخر كالأبوة والبنوة فإنهما لا يصدقان على شيءٍ واحد من جهة واحدة، وإحداهما لا تعقل إلا مع الأُخرى»[٣]. ويرى الشيرازي أنّ المعانيَ الإضافيّةَ شاملةٌ الوجودَ في جميع مراتبه «إذ ما من موجود إلّا وله إضافة إلى غيره بالعلّية أو المعلوليّة أو غيرهما... فتقابل التضايف لا يخلو عن جنسه شيء من الأشياء حتى واجب الوجود فإنه مبدء للأشياء وإنّ خلا عن آحاد جزئياته كالأبوة والبنوة والمجاورة»[٤].

فاللّهُ تعالى وغيرُه من الموجودات الممكنة لها نسبٌ إضافيّةٌ بعضها مع بعض. وإنْ كانت بعض الإضافات لا تناسب شأنَه تعالى. وإنّما هي مختصّةٌ ببعض مخلوقاته، كالإنسان الذي له إضافةٌ بعضِه

(١) المنطق: ٤٩.

(٢) توضيح منطق المظفر: ٢٠١

(٣) الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة صدر الدين الشيرازي: ٢/ ١٠٩ـ١١٠.

(٤) نفسه: ٢/ ١٢١.

مع بعضٍ في الأبوة والبنوة والأخوة وغيرها.

وذكر أقسام الإضافة(١):

١ ـ نسبة متحقّقة في الخارج تُوجب تغايرَ الطرفين في الخارج كالأبوّة والبنوّة، فالأب له وجود مغاير لوجود ابنه.

٢ ـ نسبة متحقّقة في العقل دون الخارج يكون تغاير الطرفين في العقل. وهي قسمان:

أ. الطرفان ليس متغايرين في الخارج، بل لكلّ واحد ماهية في العقل كالماهية والوجود. فهما متغايران في التَّحليل العقلي لا في الخارج.

ب. الطرفان ليس متغايرين في الخارج، ولا في العقل؛ لأنّ الشَّيءَ الموصوفَ بالإضافة بسيطٌ غيرُ مركّب، فاللّه تعالى كلّ صفاته عين وجوده، وليس فيه أمران صفة وموصوف. وإنّما العقل يفرض له صّفةً وموصوفًا وإضافةً بينهما؛ لأنّ العقلَ يرى عروضَ الصّفات لبعض المخلوقات واتّصافها بها. فتتحقّق الإضافة بين الصّفة والموصوف. فيجعل بالقياس على هذه الإضافة للممكن إضافةً للواجب تعالى مع مخلوقاته.

استنتاجات:

١ ـ إنّ المعنيين المتضايفين مفهومان متقابلان.

٢ ـ توجد ملازمةٌ وجوديّةٌ ومفهوميّةٌ بينهما.

(١) ينظر: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة: ٣/ ٣٥٥.

٣ – معنى التَّضايف واحدٌ في التَّعريفات اللغويّة والمنطقيّة والفلسفيّة غير أنّ اللغة تعرّف الألفاظَ المتَّقابلةَ بالمعاني، فيكون التَّضايف علاقةً ونسبةً بين الألفاظ المتقابلة. والمنطقُ يدرس المعانيَ المتضايفة. فهو علاقةٌ بين تلك المعاني. والفلسفةُ تصف الأشياءَ الخارجيّةَ بوجود علاقات تضايف بينها.

٤ – الإفادة من اللغة والمنطق والفلسفة في تحليل النص القرآني؛ لأنَّه يوظّف المعاني على أساس المشتركات النَّفسيّة والعقليّة العامة لدى البشر.

الفصل الأول:

فاعلية الأسماء الحسنى

تُعدُّ الصّفاتُ الفعليّةُ للّه تعالى «المفاهيم التي تُنتزع من خلال مقارنة اللّه سبحانه بمخلوقاته، مثل الخالقيّة والربوبيّة»[1]. وتتلازم الأسماءُ الإلهيّة الحُسنى الفعلية مع أسماء أخرى في تكوين نسبة التَّضايف؛ كي تُوجدَ في البناء اللّغوي للنّص الحامل لعلاقة التَّضايف؛ لأنَّ «بنية العكس بنية تركيبية تعمل على إنشاء علاقة تلازم بين الدَّوال، وتكتمل بنية العكس بذكر الطرف المقابل»[2]. فكلُّ اسمٍ يرتبط باسمٍ آخرَ في المعنى الإضافي الذي يفترضهما معًا. وههنا أختار الأسماءَ التي يكثر استعمالُها في النَّص القرآني، ولها بعدٌ دلالي متشابك مع الامتداد اللّغوي، ومتواشج مع أعماقه القصديّة. وهي تظهر مع الأسماء المقابلة لها في التَّضايف الدَّلالي؛ لتكون نماذج لجميع الأسماء الحسنى التي يتَّصفُ بها اللّه تعالى بعد إضافتها المعرفيّة مع أسماء أخرى. فتكاد تتساوى الأسماءُ الإلهيّةُ في مزاياها عند التَّقابل الإضافي، فتارة تكون طرفًا في معنى مضافٍ عامٍ يتألَّف من الاسم

(١) المنهج الجديد في تعليم الفلسفة – محمد تقي مصباح: ٢/ ٣٩٨.

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى – د. محمد عبد المطلب: ٣٧٩.

الإلهي والاسم الخلقي العام المناسب لظهوره. وتارة يكون طرفًا في معنى خاصٍ مع الاسم الخاص بمخلوق ينسجم معه في التَّضايف. وسأقتصر على الأسماء الآتية:

١ - الخالق والمخلوق

يُوضّح المعجمُ المعنى ذا العلاقة التَّركيبية بين الفعل «خلق» وفاعله الخالق ومفعوله «المخلوق» في التَّركيب التَّام؛ لأنَّ «الخَلْقُ: التّقديرُ. يقال: خلقتُ الأديمَ، إذا قدَّرْتَهُ قبل القطع»[١]. فهذا المعنى يقتضي طرفين: خالقًا مُقدِّرًا، وشيئًا مخلوقًا مُقدَّرًا وهو الأديم؛ لأنّ الخالق من أسماء الأفعال التي تتوقّف على وجود غيرها وعلى تصوّره كالرّزاق[٢].

وقد كثُر استعمال هذا الاسم أو فعله (خلق) أو (يخلق) مع أسماء المخلوقات؛ ليتعرَّف المتلقّي على الخالق في مخلوقاته. وليعلمَ فعلَه بنظره إليها. ويقدّمُ النّص القرآني رؤيةً شاملةً تجعل التَّضايفَ مستوفيًا كلَّ شيء. أمّا بتعلّق «كلّ شيء» مفعولًا به بالفعل «خلق» أو «يخلق» أو بإضافة الاسم «خالق» إلى «كلّ شيء» وقد جُمع الاستعمالان معًا في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٗۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[٣].

---

(١) الصّحاح - الجوهري: ٤/ ١٤٧٠.

(٢) ينظر: جامع الأسرار ومنبع الأنوار حيدر آملي: ١٣٣.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ١٠١-١٠٢.

ويستدلُّ القرآنُ الكريمُ على نفي معنى التَّضايف: بين الوالد والولد ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾. عن اللّه تعالى بدليلين الأول: نفي الزّوجيّة: الزَّوج والزَّوجة «صاحبة» ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ فلمَّا لم تكن له زوجةٌ لم يكن اللّهُ زوجًا. والثَّاني بكونه خالقًا كلَّ شيء ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. فبديع السَّماوات والأرض لا يكون والدًا ولديه ولد؛ لأنَّ الأبوة لا تتحقّق إلا بوجود الأب والابن معًا. والابنُ لا يوجد إلا من أمّ كانت زوجةً لأبيه، و«لا سبيل لتحقيق حقيقة الولد إلا اتخاذ الصاحبة ولم يكن له تعالى صاحبة، فأنّى يكون له ولد؟»[1].

ولا تكون له زوجةٌ؛ لأنّه تعالى خلقَ كلَّ شيء حتى النّساء كلّهنَّ. والمخلوقةُ لا تكون زوجةً للخالق. ولا تناسب شأنَه الزَّوجة، ولا الولد. وإنّما يليق به تعالى أنَّه خالقٌ، وكلُّ شيءٍ مخلوقه. فكلُّ شيء به صار مخلوقًا دالًّا عليه. ولم يعد هناك شيءٌ يصلح زوجةً له تعالى؛ لاتّساع وجود الخالق «وعموم الخلقة لكل شيء وانبساط إيجاده تعالى على كل ما له نصيب من الوجود والتَّحقّق»[2].

ويلفتُ القرآنُ المجيدُ النَّظرَ إلى فعل الخلق (خلقَ) الشَّامل لكلّ دابّةٍ في منظر ممتدّ تتحرّك فيه تلك الدَّواب بآلات متنوّعة مسخَّرة في أجسامِها. وهي مخلوقةٌ من مصدر واحد للحياة هو «ماء» مطلق. فتدلّ على عجائب الخلقة، وقدرة الخالق الذي أوجد الأنواعَ المختلفةَ من شيء واحد.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن

(١) الميزان في تفسير القرآن محمد – حسين الطباطبائي: ٧/ ٢٩١.
(٢) نفسه: ٧/ ٢٩٢.

يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1]. بل اللّه سبحانه دائمُ الخلق، ولا ينقطع فعلُه؛ لأنّ خالقيته تقتضي استمرارَ الخلق. ولعلّ الفعلَ المضارعَ يُشعر بذلك الدّوام ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ ﴾. فإذا دام الخلقُ استلزمت رؤيةُ دوامِه العلمَ بالخالق؛ لأنّ المخلوقَ معنى تضايفي يُذَّكرُ بمقابله «الخالقَ» دائمًا. وتكون المخلوقاتُ آياتٍ دالةً على خالقها؛ لأنَّ كلَّ مخلوقٍ يحتاجُ في خلقه إلى خالقه. والموجودُ القادرُ على الخلقِ لا يتَّصفُ بصفة الخالق إلا إذا صدر منه مخلوقٌ.

فكانت المخلوقات آياتٍ وعلاماتٍ على خالقها ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[2].

فنحن البشر جميعًا خلق من تراب. فلمَّا خُلقنا من أصل واحد كنّا آياتٍ لخالقِنا؛ فليس لنا القدرة على خلقِ أنفسِنا، أو أنْ يخلقَ بعضُنا بعضًا. فالتَّضايف يفرض وجودَ: اللّه خالق والبشر مخلوق. ويُفصّل المقطعُ الآياتِ بخلق معنى تضايفي يكون دليلًا وعلامةً على الخالق.

وهو خلق الأزواج من النّساء المقابلات للأزواج من الرّجال؛ ليستشعرَ البشرُ كافةً أنّ الخالقَ قريبٌ منهم يجدون آثارَه في أنفسهم وفي مَنْ هو قريبٌ من أنفسهم. فمَنْ نظر في خلقتِه وجدَ خالقَه؛ لأنَّ

(١) سورة النور، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الرّوم، الآيات: ٢٠-٢٢.

ذاتَه دليلٌ على خالقِه بالملازمة. ومَنْ نظر في زوجِه وجدَ خالقَه أيضًا؛ لأنّه مخلوقٌ مثلُه يدلّ على خالقه؛ «لأنّ كلّ مخلوق لا بدّ له من خالق وذلك ظاهر، إذ وجود أحد طرفي الإضافة يستلزم وجود الطّرف الآخر بالضّرورة»[١]. وقد استوعب فعلُ الخلق الموجوداتِ كلّها في إطارٍ تضايفي عامٍ يشمل الزَّوجية: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

ولعلنا نفهم أنّ ههنا معنيين متضايفين: [الخالقية = خالق المعبّر عنه بضمير الجماعة «نا» و(مخلوق «زوجين») والزّوجان ينشئان علاقة الزَّوجية = زوج وزوجة]. فإذا كان اللّه هو خالق كلّ زوج. فلم يكن له زوجة؛ لأنّ كلَّ زوجة مخلوقة، ولها زوج مخلوق يُقابلها. و«الزَّوجان المتقابلان يتم أحدهما بالآخر... وقوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون أنّ خالقها منزه عن الزّوج والشريك واحد موحَّد»[٣]. وفصّل النَّص القرآني الزَّوجيّة العامّة في كلّ شيء بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٤]. فتكون الإضافةُ بين الخالق والمخلوق «الأزواج» موجودةً في صور متنوّعة:

١ – زوجيّة: زوج وزوج = النبات.

٢ – زوجيّة: زوج وزوج = البشر.

(١) شرح توحيد الصّدوق – سعيد القمي: ١/ ١٢٠.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٨/ ٣٨٢.

(٤) سورة يس، الآية: ٣٦.

٣ - زوجيّة: زوج وزوج = ما لا يُعلم.

ثم تظهر الآياتُ الكبيرةُ الواضحةُ في ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ كلُّ تلك المخلوقات العظيمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليس لها شيءٌ في ذاتها في الرّؤية القرآنية- إلا كونها آيةً مخلوقةً تعكس بالتَّقابل خالَقها: السَّماوات والخالق. والأرض والخالق. وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ والخالق، وألوانكم والخالق. وهي تستحضرُ وجودَ الخالق في ذهن المتلقّي. فلا يستطيعُ أنْ يرى غيرَ آيةٍ للخلق أنّى نظر؛ لأنّ كلَّ منظورٍ إليه هو آية حتى لسانه ولونه. لكنّ المتلقّي تارةً يعلمُ أنّها آيةٌ دالةٌ على خالقِها، وتارةً يحسبُها موجودًا مستقلًّا لا يدلُّ إلّا على ذاته. وههنا يتوّهم المتلقّي، ويقعُ في مغالطة عندما يظنُّ أنّ تلك المخلوقاتِ مالكةٌ وخالقةٌ ومعطيةٌ وحافظةٌ... إلخ. وهي في الواقع ليس كذلك؛ لأنّ شأنَها الدَّلالةُ على المالك والخالق والمعطي والحافظ...إلخ.

و«إنّما يصحّ عندنا اطلاق هذه الأسماء، عند إحداثه البرايا؛ إذ نحن إنّما علمنا أنّ له هذا معنى الخالق حيث وجدنا مخلوقاته لا أنّه استفاد ذلك المعنى بسبب خلْقه. فتلك النسب والإضافات إنّما هي بالنظر إلينا حيث استدلَلْنا على كل صفة من صفاته الحسنى بظهور أحكام تلك الصفة»[1].

فالمخلوقاتُ تُظهِر صفةَ الخالق التي يمتلكها اللّه، فلا تخلقُ شيئًا بذاتها؛ لذلك شرح الأنبياء والرّسل عليهم السلام لأقوامهم الرُّؤيةَ السَّليمةَ في فهم الأشياء من جهة كونها آياتٍ دالّةً على خالقها، وهي لا تستحقُّ

(١) شرح توحيد الصّدوق: ٢/ ١٦٨.

العبادةَ والدُّعاءَ والطَّلبَ. بل الفهم الصَّحيح والإدراك الواقعي أنَّ ينظر إليها؛ لاكتشاف الجمال الإلهي الذي خلقه اللّهُ تعالى فيها؛ «فوجود مخلوق يحتم وجود خالق، وبوجود مخلوق نستدل على وجود خالق. والخالق لا يكون خالقًا إلا إذا خلق فصار هناك مخلوق»(١).

فذلك يُخاطب إلياسُ عليه السلام قومَه ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٢). وهذا الخطابُ يتضمّن اسمينِ أحسنينِ متضايفينِ: الأول ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ الذي يقابله أحسنُ المخلوقين. ما يعني أنَّه خلقَ أحسنَ الخلق، ويخلقُ أحسنَ الخلق. فكلُّ خلقِه في أعلى درجات الحسن والجمال ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾(٣).

فكيف يتوجّه الناسُ إلى بعلٍ كان في الماضي، أو يكون في الحاضر أو في المستقبل بالدّعاء والعبادة. وهو مخلوقٌ مثلُهم له خالق؟!. والاسم الثَّاني: ربُّكم الذي يضاف إلى المربوبين «كم»؛ لتكوين مفهوم الرّبوبيّة في مستويين: الأول في الحاضر عند الخطاب: الرّبوبيّة = ربّ ومربوب «كم». والثَّاني في الماضي: الرّبوبيّة = ربّ ومربوب «آبائكم»؛ فلا يخلو وجود البشر في أيّ زمان من ربّهم.

وتتنوّع المكوّنات المتَّقابلة للتَّضايف في النَّص القرآني، وهي تتمثّل بكلمات مختلفة دالّة على ذلك التَّقابل بين الخالق والمخلوق.

---

(١) تأملات في فلسفة اللغة خصوصية اللغة العربية وإمكاناتها: ١٥٤.

(٢) سورة الصَّافات، الآيات: ١٢٣-١٢٦.

(٣) سورة السَّجدة، الآية: ٧.

وتنسجم أنواعُ الكلمات المستعملة مع المعنى العام للنَّص. ويمكن أنْ تُستلهم صورةٌ واضحةٌ من القرآن الحكيم لكلّ متقابلين في المجموعات الآتية:

المجموعة الأولى

هذه الآياتُ العظيمةُ استعمل فيها اسمُ الفاعل (خالق). وتُقسيم على مجموعات فرعيّة بحسب تضايفِ هذا الاسم مع الأسماء الأُخَر:

١ – **قسمٌ** أُضيف فيه الخالق إلى «كلّ شيء». فتشملُ الخالقيّةُ جميعَ المخلوقات، ويكون تصوّرُ الخالق مستلزمًا تصوّرَ كلّ مخلوقاته، فبه تُخلقُ وتُوجدُ، وبه تُعرفُ. فالجميعُ مخلوقاتُه تعالى؛ و«نسبة الصفات الفعليّة للّه تعالى... لا تعني وجودَ أمر عينيّ غير وجوده تعالى ووجود مخلوقاته يتحقّق في الخارج يُسمّى الصفة الفعليّة، واللّه جلّ وعلا يتّصف به. وإنّما جميع هذه الصفات مفاهيمُ إضافيّةٌ ينتزعها العقل بعد مقارنة خاصّة بين وجوده ووجود مخلوقاته. مثلًا عندما يأخذ بعين الاعتبار تعلّقَ وجود المخلوقات باللّه سبحانه فإنّه ينتزع مفاهيم الخالق والفاطر والمبدع بعنايات خاصّة»[١]. فالتَّضايفُ بين متقابلين: اللّه وكلّ شيء. وهذا المعنى واضح في الآيتين:

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾[٢].

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾[٣].

(١) المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: ٢/ ٣٩٧.

(٢) سورة الزّمر، الآية: ٦٢.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٢.

٢ - قسمٌ فيه اسمُ الفاعل (خالق) متعدّيًا إلى مفعول به. ويمثّل اللّهُ تعالى طرفَ الإضافة الأول، وطرفُها الثّاني آدم عليه السلام؛ للتّعبير عن بدء تحقّق الخلق وظهوره في إيجاد آدم عليه السلام. فالإضافة من متقابلين: خالق وبشرًا (آدم). وإنَّ اللّه جلّ شأنه اتّصف بهذه الصّفة الفعليّة عند خلقه آدم. وقد خاطب تعالى ملائكته مبيّنًا ذلك في الآية المباركة:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[1].

٣ - قسمٌ جاء فيه اسمُ التّفضيل (أحسن) مضافًا إلى اسم الفاعل (الخالقين) وهو اسم إلهي من اسمين، وقد استعمل في سياق خلق الإنسان، وتعدّد مراحل خلقه العجيب. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[2]، وفي كلّ مرحلةٍ يظهر فعلٌ جديدٌ يتحقّق بإيجاد تلك المرحلة من الخلقة؛ لذلك تكرّر الفعل (خلق). ولمَّا انتهت مراحلُ الخلق المادّي، ثم انتقل الإنسانُ إلى مرحلة الخلق الآخر المعنوي تجلّى الاسم الإلهي ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

ولعلَّ الأفعالَ السَّابقةَ لخلقِ جسمِ الإنسان يستلزمُ كلُّ فعلٍ منها طورًا من جسمه. فالفعل (خلق) الأول يُحيل بالتّلازم الإضافي على النّطفة، فهنا إضافة بين: خالق والنّطفة.

والفعل الثّاني تلازمُه العلقةُ. فتظهر إضافة ثانية بين: خالق والعلقة. والثّالث تلازمُه المضغةُ، فنعلم إضافةً ثالثةً بين: خالق والمضغة.

(١) سورة ص، الآية: ٧١.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

والخلقُ الآخر الرُّوحي متلازمٌ مع أحسن الخالقين. فتكون الإضافةُ الرابعةُ بين أحسن الخالقين وخلق آخر. وربما كلُّ مراتب خلقة الإنسان متلازمةٌ مع الاسم ﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾. بمعنى أنّ الإنسانَ الآخر يتمثّل بجسمه وروحه مقابلًا ينتزعُ منه بعد مقارنته بخالقه الاسم أحسن الخالقين.

فتكون الإضافةُ واحدةً كليّةً: أحسن الخالقين و(النّطفة والعلقة والمضغة والخلق الآخر). و«كأنّه أنشأهم إنشاء آخر وأوجدهم في صورة أخرى، التي هي الصورة الإنسانيّة البشريّة الكاملة التّامة، الموصوفة بأحسن الصور لقوله تعالى ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾»[1]. واستعمل في الاحتجاج على عبادة الأصنام؛ لتبيين حجته على التَّاركين لعبادته. ويظهر من تلك الحجة أنّ «أحسن الخالقين» هو المستحقُّ للعبادة والطَّاعة والتَّوجّه؛ لأنَّه أحسنُ الخالقين لكلّ شيء، وبه خُلِقَ الخلقُ، وبه عُرِفَ الخلقُ جميعًا. مع كونه ربَّهم وربَّ آبائهم، فالخالقُ هو أهلٌ للعبادة. قال تعالى: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[2].

٤ - **قسم** استعمل فيه اسم الفاعل مجموعًا جمعَ مذكرٍ سالمًا ومحلّى بأل، في آية قرآنيّة تنفي اتّصافَ المشركين في زمن النّبي محمّد ﷺ بهذا الاسم، وليس لهم هذه الصّفة في الواقع قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾[3]. فلا توجد ملازمةٌ

(١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار: ٥٤٠ـ ٥٤١.

(٢) سورة الصّافات، الآيتان: ١٢٥-١٢٦.

(٣) سورة الطّور، الآية: ٣٥.

بينهم وبين أيّ مخلوق؛ لأنَّ نفيَ وجود الخالق يستلزم نفيَ وجود المخلوق ثم نفي الطرفين يستلزم انتفاءَ الإضافة نفسها. واستعمل اسم الفاعل في آية أخرى ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[1]. في مجال الاحتجاج بخلق النّطف بشرًا، فتنفي نسبةَ فعلِ الخلق للبشر بالاستفهام الإنكاري. فهم لا يخلقون النّطفةَ بشرًا. وتؤكّد الاسمَ للّه تعالى. فهو الخالق لذلك؛ فتكون إضافةٌ بينه سبحانه وذلك الماء المهين الذي يُدهش العقولَ إيجادُه، ويُحيّرها انتقالُه وتحويلُه إلى موجود حيّ مفكّر!!!. فيعلمُ القارئُ المتدبّرُ في خلقه عجيبَ صنع الخالق وإبداعه.

٥ - **قسم** يمثّلُ آيةً واحدةً فيها اسم الفاعل (خالق) نكرة موصوفة منفية عن غير اللّه تعالى، وحصرها به سبحانه في سياق خطاب النّاس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[2]. فلا يوجد هناك خالقٌ مطلقٌ يمدُّ النّاسَ بالرّزق، فتُلغى بهذا النَّفي أيّةُ إضافة للنَّاس مع أيّ خالق متصوَّر. فلا يخطرُ في العقل معنى المخلوق الذي يشملُ النّاسَ مع أيّ مفهومٍ آخرَ إلّا مع مفهوم اللّه تعالى الخالق الحقيقي.

المجموعة الثَّانية

المستعمل فيها الفعل الماضي أو المضارع من مادة (خ ل ق). وتُقسّم مجموعتين:

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٥٨-٥٩.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣.

المجموعة الأولى: استعمل فيها الفعل الماضي (خلقَ) وهي أقسامٌ:

١ ـ آيات خلق السَّماوات والأرض

التَّقابلُ فيها بين اللّه والسَّماوات والأرض. فتكون الإضافةُ بينهما عند إدراك السَّماوات والأرض وارتباطها بخالقها، وموجدها، ما يجعل الفهمَ يتطوّر كلّما نظر المتلقّي إلى السّعة الوجوديّة للعالم الماديّ، ويتعمّقُ الفهم أكثر كلّما تدبّر في نظامها الأحسن. فيستحضر العقلُ مفهومَ الخالق، وينالُ حصةً من معرفته على قدر قابليته على الإدراك ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

وتستشعرُ النّفسُ حضورَ الخالق عند انفعالها بجمال الكون وحسن مظاهره؛ لذلك يستحقُّ اللّهُ الحمدَ والثَّناءَ على خلقه ذلك ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2]. وقد دلّت بعضُ الآيات على عموم الخالقيّة في الموجودات التي تسكنُ السَّماوات والأرضَ. فأيُّ شيءٍ صغير أو كبير ماديّ أو مجرّدٍ يمثّل آيةً واسمًا ملازمًا لخالقه. فكلّما أدرك العقلُ موجودًا أرضيًّا أو سماويًّا علمَ تعلّقَه بخالقه، وكلّما أدركَ أكثرَ عددٍ من المخلوقاتِ انفتح عقلُه على تصوّر موجوداتٍ أُخَر دون أنْ يتوقّفَ إدراكُه عند حدّ؛ لكثرتها واتّساع عوالمها. وليس أمام الإنسان في

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١.

تصوّر العالم المادّي الواسع في النتيجة إلا الحيرةُ والعجزُ والإقرارُ بانتسابه إلى خالقه الذي له القدرةُ على إيجادِ هذا العالم العجيب ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[١].

وقد أُفردَ خلقُ الأرض في قوله تعالى: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ[٢]. فهي محسوسةٌ قريبةٌ منّا، نرتبط بها في هذه الحياة في كلّ لحظة غافلًا أغلبُنا عن علاقتها الدَّائمة بخالقها؛ فهي مخلوقة تُحيلُ على خالقِها، وتملأ رؤيتُها العقلَ بعظمةِ خالقِها.

وأُفرد خلقُ السَّماوات في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[٣]. والآية تدعو للتَّأملِ والرُّؤيةِ في حالة خلقها، وليس النَّظر فيها مستقلةً عن تصوّر خلْقها الذي ينظمها به تعالى في إضافةٍ توجبُ تلازمَ الطّرفين، وتُقرّبُ التَّصورَ من اليقين. وقد ذكّر القرآنُ الكريمُ بظواهرَ تابعةٍ للسَّماوات والأرض حتى يظهر من بعض آياته كأنّه يُعرّف اللّهَ تعالى للعقول بأنّه خالقُ تلك الظواهر العجيبة كما يبدو من الآية المبيّنة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٤].

فيكون التّعريفُ مركّبًا من مكونين بينهما نسبة الخالقيّة. وهما:

(١) سورة يونس، الآية: ٦.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٩.
(٣) سورة نوح، الآية: ١٥.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

الخالق المتصوَّر من الاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾. والمخلوقات المذكورة: ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾. إنَّ القرآنَ يرسم رؤيةً معرفيّةً واسعةً ومعمَّقةً موجودةً في كلّ لحظة ما دام الإنسانُ عائشًا في هذه النَّشأة ترفعُ أفقَ التَّلقّي على كلّ فهم محدود للنَّظر في كلّ شيء وامتداداته مع الأشياء الأُخرَ، والتّدقيق في أعماق كلّ شيء؛ لاكتشاف تعلّق الأشياء بخالقها؛ إذ «ليس شيء من الموجودات إلا وله خاصية ذاتية، ولوجوده حكمة عظيمة، وسرّ عجيب، لا يوجد في غيره. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1]... إلا أنّ الناس لا يتعجّبون ممّا تكرر مشاهدتهم إيّاه، وإنّما يتعجّبون من النوادر وإنْ كان المتكرر أجلّ حكمة، وأعظم أمرًا، وأعجب فعلًا من النادر»[2].

٢ ـ **آيات خلق النّاس** وهي قسمان:

أ ـ **مجموعة** صوّرت خلقَ الإنسان، فاستعمل الفعل (خلق) متعدّيًا إلى مفعوله الضمير المتّصل الذي يرجع إلى النّاس المخاطَبين بتلك الآيات، وهذا الخطابُ يكشف عظمةَ الإنسانِ وتشريفَه بالخطابات الإلهيّة في أعظم كتابٍ منزّلٍ على أعظم رسول ﷺ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3]. ولعل غايةَ الخطاب تنبيهُ الإنسان إلى خلْقته المعطيةِ له العلمَ بخالقه، والمنتجةِ له اليقينَ بأنّه مخلوقٌ.

(١) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٢) عين اليقين الملقّب بالأنوار والأسرار – محسن الكاشاني: ١/ ٥٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١.

وأنَّ خالقَه أعطاه أفضلَ نعمةٍ. وهي الخلقُ والوجودُ في هذا العالم بعد أنْ كان معدومًا. ما يوجب على المخلوق عبادَه خالقه وربّه. وتظهر ثنائيةُ في: الرّبوبيّة والخالقيّة كلّ واحدة منهما تُلزم الإنسانَ بأنْ يعلم خالقَه وربَّه، وتفرض عليه عبادتَه، ولا ريبَ في أنّ الربَّ والخالقَ صفتان لموجود واحد هو اللّه تعالى. وهاتان الإضافتان «الخالقيّة والربوبيّة لا تنفكان عن بعضهما، فتربية وتدبير شؤون موجود مّا لا يمكن فصلها عن خلقه وخلق سائر المخلوقين الذين يحتاج إليهم. فمثلًا إعطاء الرزق للإنسان ليس أمرًا منفصلًا عن خلق الجهاز الهضمي له وخلق المواد التي تُؤكل في بيئته. وبعبارة أخرى: إنّ مثل هذه المفاهيم تُنتزع من علاقات المخلوقات فيما بينها، وليس لها مصداق مستقلّ عن خلقها، وبناء على هذا فإنّه بإثبات الخالقيّة يَثبت التَّوحيد في تدبير الأمور وسائر شؤون الربوبيّة أيضًا»[1].

وتجدُ المعنى المضافَ إلى خلقِ الإنسان يتفصّلُ في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴾[2]. بدلالة الفعل (خلق)الذي له فاعل (خالق) وهو اللّه تعالى الذي يتجلّى في الإنسان الذي يشملُ: الذَّكر والأُنثى. فالقارئُ للنّص يفهم وجودَ إضافةٍ مفصَّلةٍ يُحيل عليها الفعل (خلق) تتكوّن من طرفين: الخالق والزّوجين = (الذّكر والأنثى).

وهما يمثّلان طرفًا متعلّقًا بالطَّرف الأول للإضافة الخالق الذي لولاه ما وُجد الزّوجان، ولولا الزّوجان ما ظهر الخالقُ، ولا عُرفَ.

(١) المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: ٢/ ٣٨٥.

(٢) سورة النّجم، الآيتان: ٤٥-٤٦.

والزّوجان يمثّلان إضافةً أخرى فيما بينهما: الذَّكر والأنثى. وهي نسبة دالّة على عجيب الخلق، وبديع الإيجاد في تنوّعهما وتمايزهما بصفات خَلْقيّة على الرّغم من وحدة الأصل المتمثّل بالنّطفة !!!. ويدخل الفعلُ «خلق» في أبنية تركيبيّة تُنتج معنى تضايفٍ عامًّا، يُؤسّس علاقاتِه الفرعيّةَ التي تنطوي تحت دلالته العامّة المفهومة من النَّص القرآني الذي يتضمّن الخلقَ بتكرير الفعل نفسه مرتبطًا بمتعلقاتٍ متغيّرةٍ في تسلسلٍ دلالي ينتقلُ من بداية النَّص إلى حلقاته كلّها

حتى يكونَ شكلُه اللغوي قارًا. وتكون معانيه متولّدةً في كلّ وقت مادامت مراجعُه الخارجيّةُ تتجلّى في النَّظام الكوني الفعّال في هذه النشأة. فالنَّص ثابتٌ في إطاره اللغوي، ومتحرّكٌ في نسقه المعنوي في قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[1].

يُفتتح النص ـ في حدود الآيات ـ في البناء اللغوي (خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) المشكّل نسبةَ الخلق بين المتكلّم اللّه والإنسان المخلوق بتحديد مصدر الخلق وأساسه الطيني. وهذا التَّضايفُ شاملٌ جميعَ البشر ما يعني أنَّ كلَّ فردٍ من الإنسان له علاقةُ ارتباط بخالقه، فيكون مظهرًا بارزًا في الخلق يُثبت في ظهوره وجودَ خالقه. وتأتي المرحلة الثَّانية في المركّب اللغوي ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾؛ لتُسهم في امتداد نسق الخلق باستعمال الفعل «جعل»

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢-١٤.

المنتج لتضايفٍ جديدٍ بين اللّه الجاعل والإنسان المجعول؛ ليتحوّل الإنسانُ السُّلالة الطينيّة إلى النُّطفة. وهذا التَّضايفُ الفرعي معنى عامٌّ يتجلّى فيه الجاعلُ في كلِّ نطفةٍ بشريةٍ جامدةٍ تستقرُّ في الأرحام. ويتَّسعُ الخلقُ ويتعمّق بعلاقات متعدّدة وتحوّلات متتالية ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. فنجدُ النطفةَ التي كانت طرفًا في علاقة الجعل قد احتلت مكانةً جديدةً في علاقة الخلق، فصارت مخلوقةً بانتسابها إلى خالقها الذي نقلها إلى علقة في عملية الخلق. والعلقةُ نفسُها لها علاقةٌ بهذا الخلق، فهي مخلوقةٌ من النّطفة. ثم تدخل العلقةُ في خلقٍ جديدٍ. وتمثّل طرفًا مقابلًا لخالقها دالة عليه بضرورة التَّلازم بين الخالق والمخلوق، فتكون مضغةً. والمضغةُ تتعلّق بخالقها الذي أوجدها من العلقة؛ فتصير ظاهرةً في النَّص بدلًا من المضغة، وتتعلّق به عندما يخلقها عظامًا، فهي مخلوقة.

وكذلك العظام تدخل طرفًا جديدًا في الخلق؛ فتكون مخلوقة من المضغة. وتصبح مكونًا في تضايف فرعي للخلق وهو الكسو ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ الذي يتكون من طرفين: الكاسي والمكسو. ويكتملُ نسقُ الخلق في مجال الآيات التي ظهر فيها المصدر «خلْق» بعلاقة الإنشاء ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ القائمة بين المنشئ اللّه تعالى والمنشَأ الإنسان. وهي علاقةٌ يصل فيها الإنسانُ إلى أقصى كماله الخَلْقي عندما يصير خلقًا جديدًا يتضمّن الرّوحَ والعقلَ، ويتجاوز حدودَ اللحم والدَّم والعظام، وتصلُ علاقةُ الخلق الإلهي أعلى مراتب تجلياتها في هذا الإنسان الآخر. ولعلَّ هذا النسقَ يربط بين الخلق الإنساني الآخر

وأحسن الخالقين حتى تتناسب مكونات التَّضايف اللغويّة.

فيكون هذا التَّضايفُ في الخلق مكونًا من الخالق الذي له مقام أحسن الخالق والمخلوق الذي له مرتبةُ الخلق الآخر المتعالي على مراتبه الخلقيّة الأُخر، أو - بفهم آخر - يكون هذا الإنسانُ الآخر بجميع مراتبه موجودًا دالّا على خالقه في أعلى مراتب فعله الخلقي. وتتسّع دلالةُ الخلق في تضايفه المكوّن من علاقات شاملة لآفاق تكوينيّة واسعة في الفعل الإلهي ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾[1].

يتأسّسُ المعنى المتضايف على أساسٍ ثابتٍ في جوهره الوجودي وذي دلالة ثابتة في معناه، وهو «بِالْحَقِّ». ويظهر الخلق الذي هو نسبة بين الخالق والمخلوق، فيكون المخلوق ملازمًا خالقَه، فتكون السَّماوات والأرض آيات وعلامات في علاقة الخلق وجودًا، ورموز لغوية دالة على معنى الشيء المخلوق المتضايف مع الخالق في تقابل التَّضايف.

ويُفرد النَّص القرآني خلقَ الإنسان بعلاقة خاصة في مركب لغوي جديد يتجلّى فيه الفعلُ اللغوي نفسُه ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ إلا أنَّ معنى التَّضايف مختلفٌ بظهور الإنسان النوع مكونًا مقابلًا لخالقه

(١) سورة الزّمر، الآيتان: ٥-٦.

وهي دلالةٌ ساريةٌ في كلِّ فرد من أفراد الإنسان، ما يجعل النَّص يحتمل أكثرَ من معنى للتَّضايف فيه. فسطحُ النَّص يُفهم أنَّ الإنسانَ بمعناه العام يدخل طرفًا متضايفًا مع خالقه. فيكون التَّضايفُ واحدًا بين نوع الإنسان وخالقه.

ويُعطي النَّص معنى آخر بتفكيك معنى الإنسان العام إلى أفراده، فيكون هناك تضايفٌ في الخلق كثير بعدد تلك الأفراد. ولكلّ فردٍ منهم علاقةُ خلقٍ مع خالقه. ولا تناقضَ في المعنيين؛ لأنّ الخلقَ الواحدَ الشاملَ جميعَ البشر يتفصّلُ، ويتجلّى في أفراده ويتشخص بخلق كلّ فردٍ منهم. ولعلَّ الفعل المضارع ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ يصوّر للقارئ الصورةَ الإجماليّةَ لعملية الخلق بين البشر وخالقهم مع تكرار عمليات الخلق العجيب لهذا الإنسان المخلوق بنسق خلقي فريد. فكلُّ البشر يخلقهم اللّه بهذا النّسق، وهذا المعنى الكليّ يمكن فهمه في نسق مفصّل تكثر فيه علاقاتُ الخلق بين كلّ فردٍ وخالقه.

فيكون لمحمدٍ -مثلًا- معانٍ متضايفة للخلق بعدَ الخلق بعددِ مراتبِ خلقه في نسق خلقه الخاصّ به. وتتعدّدُ وتتنوّعُ علاقاتُ خلقِ غيره في أنساقِ خلقِهم التَّفصيليةِ بعدد مراحل خلقهم التَّام.

ب. مجموعة اختصَّت بخلقِ بعضِ النَّاس الذين يجري الحديثُ القرآني عنهم. مثل خلق بعض الأنبياء عليهم السلام كإبراهيم عليه السلام وعيسى عليه السلام وغيرهما وخلق بعضٍ من غير الأنبياء كما في الآيات الآتية:

- ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ

نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾[1].

- ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2].

- ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾[3].

- ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[4].

كلُّ هذه الآيات وغيرها ممّا ذُكر فيها خلْقُ بعضِ البشر تتضمّنُ علاقةً تضايف بين الخالق وذلك المخلوقِ المتمثّلِ بالنَّبي أو غيره تكشف بواسطة الفعل (خلق) وفاعله ومفعوله أطرافَ تلك العلاقة والإضافة، وتنْظم النَّسيجَ النَّصي في معنى تامٍّ يتلازم فيه الخالقُ والمخلوقُ تلازمًا وجوديًّا ومعنويًّا يجعل المتلقّيَ معترفًا بأصالة الخالق في كلّ وجود أولئك المخلوقين الذين هم أغلبهم يذعنون بذلك، ويعترفون بخالقهم وارتباطهم به.

(١) سورة الشّعراء، الآيات: ٦٩-٧٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٣) سورة مريم، الآيتان: ٨-٩.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٣٧.

٣ ـ آيات خلق الملائكة والجنّ

توجد آيةٌ واحدةٌ ذكرت كلمةَ (الملائكة) مفعولًا به للفعل (خلق) في سياق نفي ادّعاء خلق اللّه تعالى الملائكة إناثًا، في قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1].

ويُفهم من الآية وجود معنى إضافي بين الخالق تعالى والملائكة الذين لا يتَّصفون بالإناث؛ لأنّهم موجوداتٌ مجرّدةٌ فوق الاتّصاف بالتَّأنيث أو التَّذكير الذي يتّصف به الموجود المادّي، ويتعلّق بالجسم المادّي في هذه الحياة الدّنيا. فتظهر الخالقيّةُ في عالم الملائكة ما يسمو بالعقل إلى آفاقٍ دلاليّة غير محسوسة يُدرك فيها معانيَ أدقَّ تزيد من معرفته، وتعمّقُ من وعيه، وتُغريه بالتَّواصل مع عالمِ الخلق الخفي؛ لفهم تفاصيله المثيرة. وتستقلُّ مجموعةٌ من الآيات بخلق الجنّ، ومنهم الشَّيطان؛ إذ يُدرك الشَّيطان نفسُه أنّه مخلوقٌ للّه تعالى. ويعلمُ أصلَه الذي خُلق منه:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2]. فالنَّار هي أصلُ الجانّ كلّهم ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[3]. ما يُعطي تصوّرًا متوغلًا لخالقيةِ اللّه تعالى الخفيّة في إيجاد ذلك العالم المستور عن عقولنا، فنعلم أنّنا نجهلُ أكثر ممّا نعلمُ من حقائق الوجود الكثيرة العجيبة التي

(١) سورة الصَّافات، الآيات: ١٥٠-١٥٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٣) سورة الرّحمن، الآية: ١٥.

تهدف إلى معرفةِ الخالق وعبادته عن علم ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

٤ ـ آيات خلق الحيوان

يسري معنى الخالقيّة في عالم الحيوان الذي يعيشُ قريبًا من الإنسان الواعي بوجوده. فيُقيم معه علاقاتٍ كثيرةً؛ لتكميل حياته، وتطوير نشاطاته. ويرتبط اسم الخالق ببعض أسماء الحيوان الأليف بواسطة فعله (خلق) والآيات المصوّرة للمقابلة التَّضايفيّة: الخالق والمخلوق. تجعل ذلك الحيوانَ المخلوقَ آيةً للإنسان؛ كي يفهمَ تجلّيَ الخالقِ في خلقه العجيب المسخَّر للإنسان. كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾[٢]. وليعلمَ أنَّ ما يركبه من الحيوان في البّر آيةٌ عجيبةٌ تُحيّر العقولَ في صنعه مطيعًا الإنسانَ في الصّعود عليه على الرّغم من كبر حجمه بالقياس بحجم الإنسان، وشدّة قوته في مقابل قوّة الإنسان. فالإنسان هو المفكّرُ في خلق اللّه للحيوان، وليس الإنسان الحقيقي الذي يركبُ الحيوانَ دون تفكير.

والنَّظرُ الواعي إلى خلقةِ أيٍّ من الإبل آيةٌ على خالقه تعالى، وهو هدفٌ معرفي دعا إليه النص القرآنُ في الآية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[٣]. ولكنّ النَّص القرآني يجعل المعنى أكثر تأثيرًا في العقل والنّفس عندما يُبيّن أنّ خلقَ الحيوانِ المسخَّر لركوب الإنسان

(١) سورة الذّاريات، الآية: ٥٦.
(٢) سورة يس، الآيتان: ٤١-٤٢.
(٣) سورة الغاشية، الآية: ١٧.

هو آية. فتكون خلقتُه للرّكوب أكثر ظرافةً، وأعمق حذاقةً في الصّنع من الإشارة إلى خلقته مستقلةً عن تسخيره للإنسان. وكذلك يستغربُ الإنسانُ بعد التّأمّل الدَّقيق الخالص من التَّقليد والاعتياد في التّعامل مع الأشياء يستغربُ من خلق اللّهِ للإنعام المؤهّلة للعيش مع الإنسان حتى يكونَ مالكَها !!.

فكيف قبلت بملكيّة الإنسان، ومَنْ أغراها بهذا القبول والطاعة!!!. قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾[1]. فإنَّ هذا النّص متواشجٌ جدًّا بتقابل التَّضايف في كلماته: فالفعل (يرى) يدلُّ على علاقةٍ بين: الرَّائي (الإنسان) والمرئي (خلقة الأنعام). والفعل (خلق) يشير إلى: الخالق (اللّه) والمخلوق (أنعامًا). واسم الفاعل (مالكون) يتقابل في ثنائيّة: مالك (الإنسان) ومملوك (الأنعام). فكلُّ هذه الثَّنائيات من المعاني تلزمنا بالاعتراف العقلي بوجود الخالق المهيمن على جميع مخلوقاته.

٥ ـ آيات خلق الموت والحياة

يُؤسسُ النَّص القرآني لحقيقة معرفيّة تفرض الملازمةَ بين اللّه الخالق والموت والحياة مطلقًا من غير وجود طرف ينسب إليه الموتُ أو الحياةُ يكون مقابلًا للخالق. بل هما طرفان في الإضافة ما يعني أنّهما حقيقتان وجوديتان مخلوقتان مثل المخلوقات الأخرى مثل السَّماوات والأرض. وقد بُيّنت هذه الحقيقةُ في آيةٍ واحدةٍ. قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى

(١) سورة يس، الآية: ٧١.

خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾[1].

لذلك يترقّى العقلُ بمعرفة هذه الحقيقة، ويعلمُ بوجودِ خالقٍ للموت الذي هو مخلوق، فهو «على ما يظهر من تعليم القرآن انتقال من نشأة من نشآت الحياة إلى نشأة أخرى... فلا مانع من تعلّق الخلق بالموت كالحياة. على أنه لو أُخذ عدميًا كما عند العرف فهو عدم ملكة الحياة وله حظ من الوجود يصحح تعلق الخلق به كالعمى من البصر والظلمة من النور»[2].

فلم يكن موجودًا لولا إيجاده بمشيئة خالقه. كذلك الحياةُ تزيدُ العقلَ معرفةً بخالقها. ويتّسع فضاءُ التلقّي كلّما وجد المتلقّي موتًا أو حياةً في عالم الموجودات التي تتّصف بالموت والحياة؛ لأنَّ موتَها وحياتَها مخلوقان يدلّان على خالقِهما. ما يعني أنَّ الموجودَ الواحدَ فيه أكثر من آيةٍ. فتارةً يكون آيةً في خلقه، وتارةً يكون آيةً في خلق موته أو حياته، وفيه آياتٌ كثيرةٌ في شؤونه وأفعاله الأُخرَ.

٦ ـ آيات خلق كلّ شيء

تظهرُ دلالةُ الفعل (خلق) على التَّقابل الإضافي بين الخالق وكلّ شيءٍ مخلوقٍ، في مجموعة من الآيات، منها:

ـ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ

(١) سورة الملك، الآيات: ١-٣.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٩/ ٣٤٩.

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[١].

- ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[٢].

- ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[٣].

إنَّ القارئَ لهذه الآيات وغيرها ممّا اشتمل الخلقُ فيها على كلّ شيءٍ يتوصّلُ إلى نتيجةٍ كليّةٍ، وهي أنَّ أيَّ شيءٍ مخلوقٌ وله خالقٌ. فالفعلُ الإلهي الخلقي متحقّقٌ في جميع الأشياء، وفي جميع العوالم الظاهرة والباطنة. فما من مخلوقٍ إلا وطُبعتْ في وجوده الخلْقةُ، واستحكم ارتباطُه بخالقه. فيظهر به خالقُه، ويبدو مخلوقًا دالًا على خالقه.

ويلج الفعلُ الإلهي في أعماقِ وجودِ كلّ مخلوقٍ، ويقترب من جوهره اقترابًا لا فاصل بينهما. فتكون ظواهرُ الأشياء علاماتٍ للخلق الإلهي، وبواطنها آيات لحكيم تقديره.

المجموعة الثَّانية

استعمل فيها الفعل المضارع (يخلق)، وتُقسّم بحسب الفاعل مجموعتين:

١ - **آيات** فيها الفعل مسند إلى اللّه تعالى. منها:

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢.
(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.

- ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[١].
- ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٢].
- ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٣].

وهذه الآياتُ المباركةُ تُوحي باستمرار الخلْق الإلهي للموجودات، فإنَّ النَّاظر في الموجودات الحيّة يراها تتوالد بعضُها من بعضٍ. فهي في خلقٍ جديدٍ في كلّ آنٍ. كالنَّبات والحيوان والإنسان فيما نبصرُ من المخلوقات التي يموت بعضُها، ويخلق بعضها، وما أكثر الكائنات التي لا نبصرها !! وهي تعيش حالة الخلق، وتموت وهكذا. ولا يخطر على الذّهن ما تلك الموجودات التي يخلقُها اللّه تعالى؟. ويؤكّد أنَّنا لا نعلمها ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فإذا كنّا لا نعلم تلك المخلوقات؛ فإنّنا نجهل فعلَ اللّه تعالى في تلك المخلوقات التي نجهلها !!!.

٢ - **آيات** فيها الفعل مسند إلى بعض البشر، ومنها:

- ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٤].

(١) سورة النَّحل، الآية: ١٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1]. فالآية الأولى فيها الفعل المضارع (أخلقُ) وقد نسبه الرَّسول عيسى عليه السلام إلى نفسه في خطابه إلى قومه، وفي الآية الثَّانية الفعلُ منسوبٌ إلى عيسى عليه السلام في خطاب اللّه لموسى عليه السلام. فيظهر أنَّ عيسى عليه السلام هو الخالقُ مثلَ هيئةِ الطّيرِ من الطّين. وهذا الفعلُ يشبه خلقَ اللّه لآدام من طين الذي تكلّم عنه إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2]. ويبدو في الآية فرقٌ دقيقٌ بين الخلْقينِ؛ فخلْقُ اللّه لآدام عليه السلام مباشرةً، ولا يُوجد شريكٌ للّه سبحانه في خلقه. في حين أنَّ خلقَ عيسى عليه السلام لِمَا يصيرُ طيرًا يمرّ بمراحلَ: خلقِ مثلِ شكلِ الطيرِ، والنَّفخِ فيه، والكونِ طيرًا.

وكذلك يحتاج الخلقُ بمراحله إلى الإذن الإلهي. فما من فعلٍ في عملية خلق الطير إلا وجرت من عيسى عليه السلام بإذنه تعالى. ما يدلُّ على أنّ هذا الفعلَ الظاهرَ الذي قام به عيسى عليه السلام يستبطنُ فعلًا مؤثرًا في إيجاد الفعلِ الظاهرِ للعيان، وتكون الأصالةُ لذلك الفعل العميق

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٦.

الذي يتوقّف عليه الفعلُ المحسوسُ. و«صحيحٌ أنّ كلّ علّة تتمتّع بلون من الاستقلال النسبي بالإضافة إلى معلولها ولكنّ جميع العلل والمعلولات هي عين الفقر والتعلّق والحاجة إلى اللّه تعالى وليس لها أيُّ استقلال على الإطلاق. ومن هنا فإنّ الخالقيّة الحقيقيّة والاستقلاليّة منحصرة باللّه تعالى، وجميع الموجودات في كلّ شؤونها وأحوالها وأزمنتها محتاجة إليه، ويستحيل أن يستغني موجود عنه في شأن من شؤون وجوده حتّى يتمكّن من القيام بعملٍ مّا مستقلًا»[1].

لذلك تبقى صفةُ (الخالق) من صفات اللّه الفعليّة، فلا يقدر على الخلق أحدٌ مستقل عنه تعالى؛ لأنّ كلَّ شيءٍ مخلوقٌ له. فلا يكون المخلوقُ خالقًا إلا أنْ يشاء اللّهُ أنْ يخلقَ بعضُ النَّاس شيئًا ممّن أعطاهم القدرةَ على الخلق، وجرت قدرتُه فيهم بأنْ يخلقوا ما يشاء. لذلك جاءت بعضُ الآيات تنفي الفعلَ (يخلق) عن غير اللّه تعالى من المعبودات كما في الآيتين:

- ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾[2].
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾[3].

فالخلقُ في الآية الأولى لأيّ شيءٍ منفيٌّ عنهم وإنْ كان صغيرًا، فهم ليسوا قادرين على إظهار صفةِ الخالق في غيرهم من الأشياء؛

(١) المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: ٢/ ٣٨٤.
(٢) سورة النَّحل، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٣.

لأنّهم فاقدون للقدرة على الاتّصاف بصفة الخالق الواقعيّة ﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾ على نحو الاستقلال والأصالة. وإنَّما شأنهم وحقيقتهم أنْ يتّصفوا بصفة المخلوق؛ لأنّهم ﴿يُخْلَقُونَ﴾. فصارت خلقتُهم دليلًا على خالقهم، لا على كونهم خالقين. ولعلّ الآية الثّانية تُظهر عجزَ تلك المعبودات عن خلقِ ذبابةٍ حقيرةٍ واحدةٍ.

فإنَّ هؤلاء ليس عندهم القدرةُ على ذلك. بل ليس لديهم القوةُ على استرجاع ما أخذه الذُّبابُ منهم. إنَّ اللغة القرآنيّة تعبّر عن مخلوقٍ صغيرٍ لا يُعبأ به كالنَّملة والنَّحلة والذُّبابة وغيرها؛ لتُوصل حكمةً عظيمةً، وتُعطي منهجًا في التَّفكير والاستنتاج من معلوماتٍ سطحيّةٍ إلى معارفَ أصيلةٍ مفادها عظمة الصّنع الإلهي في كلّ شيءٍ. وفقر كلّ شيءٍ إلى اللّه الغني.

المجموعة الثَّالثة

استعمل فيها المصدرُ الدّال على الحدث دون الزّمن، ويمكن أنْ تُقسّم بحسب حالة المصدر النّحويّة على المجموعات الآتية:

١ - آيات فيها المصدر محلّى بأل

استعمل في بعضها (الخلق) بمعنى المخلوق الذي يكون طرفًا في التَّقابل: (الخالق والخلْق)بالتَّصريح القرآني: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[1].

(١) سورة يونس، الآية: ٤.

فذلك الخلْقُ يتجلّى فيه خالقُه ببدئه منه، وإعادته إليه. وكذلك يبدو الخالقُ من بدء الخلْق وإعادتهم إلى خالقهم بالتَّلميح القرآني بأسلوب الاستفهام، وبالجواب الصّريح في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾(١).

٢ ـ آيات فيها المصدر مضاف

تُقسّم بحسب المضاف إليه على ما يأتي:

أ. آيات فيها المصدر أُضيف إلى اسم اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢). وأضيف إلى الضمير العائد إلى اللّه في: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾(٣).

إنَّ الإضافة النَّحوية (خَلْقِهِ)تمثّل مكوني التضايف المعنويّ، وهما: الخلْق (المخلوق) والخالق (اللّه) التي تُثبت عمومَ الخلقة؛ لأنَّ خلقَ اللّه شاملٌ كلَّ شيء، ما ينفي وجودَ خلقٍ لغير اللّه من الشّركاء من النَّاس للّه سبحانه.

(١) سورة يونس، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الرّوم، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الرّعد، الآية: ١٦.

ب. آية فيها المصدر أضيف إلى ضمير كلّ شيءٍ: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1]. ويُفهم منها أنَّ خلقَ الأشياء إنّما هو مُعطًى لها من المعطي وهو ربُّها، فتكون علاقةُ تضايفٍ بين الخلْق والربّ.

ت. آيات فيها المصدر أضيف إلى السَّماوات والأرض في آيات منها:

- ﴿ إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِى تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴾[2].
- ﴿ إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[3].
- ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾[4]. والإضافة النَّحويّة تتكوّن من المصدر ﴿ خَلۡقُ ﴾ ومفعوله ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وفاعل المصدر هو اللّه تعالى؛ فقد عدَّ القرآنُ المبينُ هذا

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠-١٩١.
(٤) سورة الرّوم، الآية: ٢٢.

المركّبَ الإضافي دالّةً على الخالق، وجعل ذلك الحدث (الخلق) الخارجي علامةً على خالقه، وأكّد أنَّه آيةٌ في نسق الآيات الكثيرة التي تُظهر كمال خالقها وجماله.

ث. آيات فيها المصدر أضيف إلى أنفسهم في الآية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1].

وقد جمعت الآية خلقين: خلق السَّماوات والأرض، وخلق أنفس النّاس. وهما حدثان لم يطَّلع عليهما النَّاسُ أنفسُهم. ما يعني أنَّ الخالق وحده الحاضر ذلك الخلق؛ لأنَّه الخالقُ الذي يتجلّى بالضَّرورة في خلقه.

٣ ـ آيات فيها المصدر موصوف

جاء الخلق موصوفًا بصفة (جديد) من الفعل (جدد) في الآيات الآتية:

- ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٥٠-٥١.

(٢) سورة الرّعد، الآية: ٥.

- ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدَۢا ﴾[١].
- ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[٢]. فهذه الآيات تنقل لنا تصوّرَ الكافرين عن البعث في الآخرة. فهم يستبعدون، وينكرون رجوعَهم إلى عالم آخر بعد انتهاء هذه الدّنيا. وهذه الرّؤية ناتجة عن شبهة في تصوّر الموت بأنّه انعدامُ الإنسان.

وانكارُهم بالاستفهام الخلقَ الجديدَ لأنفسِهم المعدومةِ يستلزم انكارَهم للخالق في هذا التَّصوّر. وهم كانوا منكرين له من قبل هذا التَّصوّر؛ لأنَّ القبولَ بخلقِ النَّفس يستلزمُ القبولَ بخالقها. وقد أشار القرآن إلى الخلق الأول: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾[٣]. «والخلق الأول خلق هذه النشأة الطبيعية بنظامها الجاري ومنها الانسان في حياته الدنيا...والمراد بالخلق الجديد تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة أخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعي الحاكم في الدنيا فإن في النشأة الأخرى وهي الخلق الجديد بقاء من غير فناء وحياة من غير موت»[٤].

فالإنسانُ وغيره خُلقَ خلقًا أوَّلًا. ويُخلقُ في عالم آخر خلقًا جديدًا. فهو في حركة متواصلة من الخلق الذي يغمر وجودَه، فكلُّ موجودٍ كالإنسان الواحد في كلّ حين مخلوقٌ دالٌّ على خالقه في هذه الدّنيا،

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٩.
(٢) سورة السَّجدة، الآية: ١٠.
(٣) سورة ق، الآية: ١٥.
(٤) الميزان في تفسير القرآن: ١٨/ ٣٤٥ـ٣٤٦.

وفي الآخرة. إنَّ الخلق المتَّصف بصفة الجديد في هذه الآية يخلق وعيًا عميقًا يستحضر المخلوقَ في كلّ لحظة. ويُعيد التَّذكرةَ بعدَ التَّذكرة بالخالق الحاضر في كلّ خلقٍ يجري في الطبيعة وفي الإنسان دون أنْ يكتفيَ بالإشارة إلى حضور الخالق في خلقه الأول فقط.

وبعضُ الآيات يدلُّ فيها (خلق جديد) على مخلوقٍ جديدٍ بدلًا من الإنسان كما في الآية: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[١]. والخلقُ الجديدُ بقدرته تعالى عليه، فالإضافة منفتحة على تجديدِ المخلوقِ الذي يمكن أنْ يخلقَه تعالى؛ لقدرته التي يرجع إليها فعله سبحانه؛ ليكون خلقهم آياتٍ عليه تعالى، فيحمدونه. فهو حميد جواد فيحمد؛ لقدرته؛ لأنه اللّه عزَّ اسمه[٢].

٢ - الربّ والمربوب

تتوّلد الرّبوبيّةُ من مفهومين متضايفين: الربّ والمربوب، فتستقر التّسمية في النّص القرآني ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٣] على متواليات الأنماط التّعبيرية؛ لتفتح التّلقي نحو الأعماقِ الدّلالية. وتوسّع أفقَه نحو المستقبل. «وبرغم أنّ عناصر بنية العكس تتوافق تمام الموافقة، فإنّها تقدّمُ شكلًا تعبيريًّا فريدً لأن التَّقابل فيه ينتج التوافق، فهو مؤشر على تداخل الدَّلالة في العمق أوَّلًا، ثمَّ تداخل المستوى السَّطحيّ ثانيًا»[٤]. فتتابع المعاني من نظام النَّص القرآني

(١) سورة فاطر، الآية: ١٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ٣٥.

(٣) سورة الصَّافات، الآية: ١٢٦.

(٤) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٧٩.

المعجِز، فتبرز في فهم عام ظاهر سهل التّناول. وتتّجه نحو معنى عميق ذي مراتب؛ فيكمن معنى الرّبوبيّة في ارتباط الربّ بكلّ ابن من المخاطَبين في التّلقي المباشر عند توجيه أذهانهم نحو آبائهم الذين يتعلّقون بهم. إذًا كلُّ فردٍ من أفراد البشريّة في مهدِ التّربية الإلهيّة ما دام يُولد من أبوين يقومان بتربيته.

إنّ النَّص القرآني ينبّه إلى الارتباط العميق بين مرتبتين للرّبوبيّة: ربوبيّة الخالق للبشر. وربوبيّة البشر المحدودة فيما بينهم التي تستحضر الرّابطة الطَّبيعية بين الآباء والأبناء؛ ليُدرك الأبناءُ بأعماقهم إحاطةَ الوجه الإلهي القائم بتربيتهم بجميع شؤون وجودهم من الحياة والرّزق والعلم والشّفاء... والسّعة الدّلالية تُدرك ضرورةً بالتَّلازم في تصوّر حضور الربّ مع كلّ أبٍ من آباء المخاطَبين في امتداد الوجود البشري كونهم يشكّلون أطرافًا في الرّبوبيّة متقابلينَ طرفَها العالي الربّ. فضلًا عن عمق الارتباط بين الربّ وكلّ أبٍ من آبائهم الذي يتوغّل أثرُه في أنفسهم.

ويستوعبُ جميعَ مراتبِ حياتهم. وتتجلّى الرّبوبيّة في كلّ وجودهم وصفاتهم كلّما التفت البشرُ إلى طبيعة خلقتهم المتكوّنة من أصالةٍ وجوديةٍ راسخةٍ في ذواتهم يُسهم في تحقّقها كلُّ والدينِ في ظلّ وجود حقيقة أعمق تمثّل المؤثرَ الأصيلَ في ذلك التحقّق؛ لذلك ثمة تبادلُ وظائفَ بين مكوني الرّبوبية: المعنى المجرّد في مقامها العالي الذي يُنتج فعلَه الخارجي المتمثّل بالآباء والأبناء. وفي مقامها الدّاني المعنى المحسوس أي الفعل الخارجي الذي يكشف المعنى العالي، ويُظهره بسياقه المعلوم. فهما حقيقةٌ واحدةٌ في مرآةٍ

محسوسةٍ تُنتج المعنى، وتُحيل على الواقع. فلولا الربّ المتعالي ما وُجد المربوب، ولولا المربوب ما تجلّى الربُّ لـ«أنّ الربوبيّة موقوفة على المربوب، الذي هو (كناية عن) المظاهر الإلهيّة مطلقًا. أعني أنّ الفاعليّة موقوفة على القابليّة، لأنّ الفاعل ما لم يكن له قابل لم يكن له أثر ولا فعل... لو بطل وارتفع، لبطلت الربوبيّة. وإبطال المظاهر وإزالتها عن الوجود مستحيلٌ ممتنعٌ؛ لأنّها شؤون ذاتيّة وخصوصيّات إلهيّة. فإبطال الربوبيّة وإزالتها يكون مستحيلًا ممتنعًا. فيكون كلّ واحد منهما، أي من الربّ والمربوب... مربوطًا بالآخر»[1].

فلا انفكاكَ ولا فاصلَ بينهما سواء في مستوى الوعي والإدراك الذي يُحتّم عند حصول أحد المفهومين في الذّهن حصولَ الآخر. أم في مستوى الوجود الخارجي الذي يُوجب أنْ يُظهر الربُّ فعلَه في المربوب حتى يصحَّ اتّصافُه بصفة الربّ، ويتحقّق المربوبُ حتى يتحلّى بصفة المربوب أيضًا؛ لـ «إنّ قوام هذه الصفات بـ «الإضافة» وملاحظة العلاقة بين اللّه والمخلوقات، والإضافة تكون قائمة بالطرفين، وبنفي أحدهما لا يكون لها مورد، ولهذا فإنّ هذه الصفات تُسمّى أحيانًا بـ«الصفات الإضافيّة»[2].

وقد قدّم الأنبياءُ عليهم السلام هذه الرّؤيةَ الجليّةَ في وجدان البشر، وحاولوا أنْ يثيروها على الملأ بحواراتهم الرائعة الهادئة. كما استدلّ عليها النَّبي موسى عليه السلام أمامَ فرعون، بتركيزه على الرّبوبيّة: ﴿ قَالَ

(١) رسالة نقد النقود في معرفة الوجود حيدر آملي: ٦٦٤. مطبوع مع جامع الأسرار ومنبع الأنوار.

(٢) المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: ٢/ ٣٩٨.

فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]. وربٌّ يُضاف إلى مربوب حاضر مخاطَب (ربّكم) وهي إضافة لفظية. دالة على ثبات تربية الربّ لهؤلاء في جميع شؤون حياتهم. ويتوغّل فعل الربّ في ذواتهم، وصفاتهم وأفعالهم؛ لأنَّ جميعَ صفاتهم وأفعالهم تقوم بذواتهم. وهذه الذّوات متعلّقةٌ بربّها. محتاجةٌ إلى جميع كمالاته وما يهبه لها، ويُفيضه عليها من مقتضيات فعله بما يجعلها موجوداتٍ حيةً. وكلُّ واحدٍ منها مربوبٌ للّه تعالى شأنه. ويظلُّ يتفاعل بالحياة بتنوّع نشاطاتها وتعدّد تقلّباتها واتّساع مظاهرها تحتَ رحمةِ الربّ في كلّ لحظة.

وتُظهر الموجوداتُ فيما بينها تقابلًا تضايفيًّا ممتدًّا في سياق الرّبوبيّة المشتملِ والمهيمنِ على تلك التَّقابلات: (السَّماوات والأرض). و(المشرق والمغرب). و(أنتم وآبائكم). «فإنَّ للشروق ارتباطًا بالغروب والمشرق والمغرب يتحقّقان طرفين لوسط بينهما، كما أنّ للسَّماء أرضًا ولهما أمر بينهما. وهذا النّوع من الاتّحاد لا يقبل إلا تدبيرًا متّصلًا واحدًا، وكما أنّ كلّ أمة حاضرة لها ارتباط وجودي بالأمم الماضية ارتباط الأخلاف بالأسلاف فالنّوع واحد والتّدبير واحد فالمدبّر واحد»[2]. ويُضافُ ربٌّ إلى (آبائكم)؛ ليتّسع معنى

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٣-٢٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٥/ ٢٧١-٢٧٢.

التربية بدءًا بالأب والأم الطبيعيينِ واللَّصيقينِ بكل واحد من الأبناء ثم أجدادهم الأقرب فالأقرب حتى آخر آبائهم. فأينما نظروا، وتأمَّلوا في أصولهم وأنسابهم التي يعتزّون بها يجدون الربَّ يُحيطهم بلطفه، ويشملهم بكرمه. فهو حاضر ما وجد انسانٌ يُدبّرُ له شؤونَه، ويُسخّر له المشارقَ والمغاربَ، ويُسهّل له معرفةَ العوالم؛ ليرتقي في سلّم الكمال في قبضة ربّه في كلّ آنٍ.

إنَّ آثارَ الربّ تشملُ كلَّ مخلوقٍ في مستوى الوجود الخارجي، فكلُّ مخلوقٍ هو مربوبٌ. ومظهرٌ فعلي للربّ، وكذلك هو علامةٌ عليه في النَّص القرآني ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ ما يُعطي رؤيةً كليّةً للرّبوبيّة تستوعب الوجودَ الممكنَ كلَّه. وتجعل العارفين يعترفون بها: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1] فقد بان من الوضوح «ومن المعلوم أنّه إذا كان ربّ كلّ شيء كان كلّ شيء مربوبًا له، فلا ربَّ غيره على الإطلاق يصلح أنْ يُعبد»(٢).

إنَّ هذا الشّمولَ في تجلّي الرّبوبيّة في كلّ شيءٍ. ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٦٢-١٦٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٣٩٥.

أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾[١]. يُقرّرُ بأعلى درجات التّبيين، وبأعمق مستويات الفهم أنَّ الإنسانَ ما دام يتمتّعُ بالحياة يبقى ملازمًا حضورَ الربّ في كلّ شيءٍ قريبٍ منه أو بعيدٍ عنه. وكلُّ شيء تظهر فيه آثارُ الرّبوبيّة؛ لأنَّه مربوبٌ يدلُّ بالملازمة على ربّه؛ «لأنّ الربوبيّة نسبة لا بدّ لها من منتسبين، وأحد المنتسبين هو المربوب، فلا يمكن (تصوّر) الربوبيّة إلا بالمربوب»[٢]. أيْ في الوجود الخارجي وفي التَّصور. إنّه مغمورٌ في آثار وجوده الخارجي يتفاعل معه في كلّ أفكاره وأفعاله التي هي أشياءٌ منتسبة في الظاهر إليه؛ لأنَّه فاعلُها ومُوجدُها. ومنتسبة في الواقع العميق إلى رّبه؛ لأنَّها تجلياته التي يسمح لها بالظّهور، ويمدُّها بالوجود.

والقرآنُ العظيمُ يقدّم كلمةَ الربّ بلغته المعجزة على الكلمات المقابلة له. ما يُشعر بأصالته، وتقدّمه في الوجود والتَّصور الذّهني، وهو الذي يَلزم منه المعاني المتقابلة الدَّالة على المربوب بمختلف أفراده. ولا ينفكُّ الإنسانُ مهما راوغ وغالط في وعي تلك الحقيقة عن قراءةٍ دائمةٍ سواء علم أم لم يعلم تستشرفُ به العودةَ إلى القضية المحورية.

وهي كونه مرتبطًا بربّه في كلّ لحظةٍ، وأنَّه إليه ينتهي في حركته الوجوديّة. ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[٣] وإنْ كان الربُّ حاضرًا في وجوده إلا أنَّ المربوبَ

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٢) جامع الأسرار ومنبع الأنوار: ١٨٣.

(٣) سورة السَّجدة، الآية: ١١.

منشغلٌ في رؤية تجلياتِ الربّ، ومنبهرٌ في المربوبين، وغافلٌ في وعيه لظواهر الوجود، فيراها مستقلّةً وحاكمةً، أو قد يراها بعضُهم هي الربّ المؤثّر؛ فينجذب قلبُه نحوها، ويطمئن بها؛ فيعبدُها.

ولو نظر الإنسانُ نظرةً عميقةً في كلّ ظاهرة «لم تعد الظاهرة الطبيعية مجرد ظاهرة طبيعية، بل «علامة» أو «رمز» «آية» كما يسمّيها القرآن. وإنّ هذا «الشيء وراء» الذي يدلّ عليه كلّ ما يدعى بالظَّواهر بوصفها علامات، هو في التَّصوّر القرآني اللّهُ نفسُه، أو بكلام أدقّ، هذا الوجه أو ذاك للّه، مثل كرمه وقدرته وسطوته وعدله... إلى آخره»(٤). وكذلك ينتهي الإنسان بعد تلاشي الظَّواهر الطبيعيَّة إلى المعرفة بربّه، فيعرفه، ويعترف بأنّه ربُّه في أفق الحضور، وأنّه لا معنى له إلا بحضور ربّه وانتسابه وإضافته إليه.

ويخاطبه متمنّيًا الرّجوعَ إلى الحياة الدُّنيا التي تلاشت؛ ليكون عبدًا مطيعًا ربَّه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾(٥). والعجيبُ في الرُّؤية القرآنية أنّ الرّبوبيّةَ تسطعُ في مدار المعنى غيرِ المتضايف كما تشعُّ من باطن المعنى المتضايف لاستحكام الرّبط بين الفاعل وأفعاله، ومنها قرآنه المقدّس الذي يصوّر تجلّيَه في كلّ كلمةٍ من كلماته بأنواع التَّجليات التي لا تتوقّف عند المعنى الظاهر.

فإنّ «لغة المقدّس مكوّنة من معايير جمالية فاضلة وذات قيمة،

(٤) اللّه والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم - توشيهيكو إيزوتسو: ٢١٤.
(٥) سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٩-١٠٠.

وتأتي القدسية للمعايير من جهة إطلاقيتها... وهنا لا يعني الإطلاق معيارًا محدّد المفهوم، ولا مقياسًا محدّد القيمة، نظرًا لكون الإطلاقي يمتلك خاصية تجلٍّ مفتوح، فبذا يمتلك القدرة على التوالد من ذاته»[1]. فإذا كانت الرّبوبيّةُ تستدعي الربَّ والمربوب. وتمتّدُ دلالتُها إلى المعنى الإضافي في الأبوّة التي تستحضر مفهومي: الأب والابن معًا؛ لأنَّ الأبوّة الطَّبيعية فيما تقدّم تمثّل تجليًّا من تجليات الرّبوبيّة. فربما يُوحي هذا الحضورُ بأنّ الرّبوبيّة تتوقفُ تجلياتها، ويتعطّلُ معناها عندَ غيابِ الأبوّة والبنوّة.

ولكنَّ القرآنَ الكريمَ يوّضح حقيقةَ الفعل الإلهي الفعّال وتدفّقه على الدَّوام سواء في مسار وجود الآباء والأبناء أم في انقطاع المعنى الإضافي للأبوّة عند ظهور (العقيم) المعنى المقابل لمن له ولد. فتوقف الأبوّة (العقم) معنى راكز في المشيئة الإلهيّة، وهو أثر من آثارها. وكلا المعنيين: الأبوّة وعدمها يبينان القدرةَ والحكمةَ الإلهيةَ. و﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[2].

وههنا استحضر الكلماتِ التي أشارتْ باللّفظ إلى الرّبوبيّة، والكلماتِ التي أنتجتِ الإضافةَ؛ كونها ذات معنى إضافي تقابلي حتى تكتملَ بنيةُ التّحليل الدَّلاليّ العامّة للاسم الربّ وما يقابله من كلمات في أكثر النّصوص القرآنيّة من غير تكرار النّصوص إنْ كانت

(١) الوعي اللغوي «الجمالي في فلسفة الكلام» منير الحافظ: ١١١ـ١١٢.
(٢) سورة الشُّورى، الآيتان: ٤٩-٥٠.

النّسبةُ متطابقةً ومكوناتُها متّحدة، فها هي أكثر الآيات التي تُقرّر وجودَ المعنى الإضافي، ويمكن أنْ تُقسّم على مجموعات بحسب طبيعة استعمال الاسم الإلهي، والاسم الذي يقابله:

المجموعة الأولى: يُضاف (ربّ) إلى العالمين؛ لوجود نسبة شاملة بين الربّ وكلّ العوالم الإمكانيّة. فهو اسم كليّ يربُّ العالمين جميعًا. فيتقابل: اللّه والعالمون. ومن الآيات التي ظهرت فيها هذه الإضافة:

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[١].

﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢].

المجموعة الثَّانية: يُضاف ربّ إلى النَّاس أو إلى بعضهم؛ لتكوين تقابلِ التَّضايف بينهما. ومن الآيات التي استوعبت هذا التَّقابلَ ما يأتي:

- ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾[٣].
- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[٤] فيها تقابل: ربّ والمتقون.
- ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾[٥] وتظهر في الخطاب القرآني بين المخاطِب والمخاطَب علاقةُ الإضافة بين: ربّ والرّسول ﷺ.

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣١.
(٣) سورة النَّاس، الآية: ١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

- ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾[١] تظهر الرّبوبيّةُ بين اللّه تعالى وآدم عليه السلام.

- ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[٢] التَّضايف في الآية بين: ربّ و«هارون وموسى» عليهما السلام.

وهناك مجموعةٌ من الآيات التي يضاف فيها (ربّ) إلى بعضِ النّاس، ويُطلق على غير اللّه تعالى كما في الآيات الآتية:

- ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٰٔفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[٣].

تظهر صورٌ من الرّبوبية في خطاب إبراهيم عليه السلام تولّفُ معانيَ التَّضايف؛ للاستدلال على الربّ الحقيقي. فكأنَّ إبراهيم عليه السلام يوازنُ بين بعض الموجودات وبين ذاته في تقابلٍ يستلزم طرفين: التَّصوّر الأول بين ربّ (كوكب) وإبراهيم. وكذلك التَّصور الثَّاني بين: ربّ (القمر) وإبراهيم. ومثلهما التَّصوّر الثَّالث بين: ربّ (الشَّمس) وإبراهيم. فإنْ كانت هذه الموجودات ربًّا حقيقيًّا يجب حضورُها الدَّائمُ عند المربوب؛ لتقومَ بتربيته. فلمَّا غابت وابتعدت عنه تبيّن أنّها ليست ربًّا بدليل شرط التَّلازم بين طرفي الرّبوبيّة. ولمَّا عُدِمَ الشَّرط، عُدِمَ المشروط.

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الأنعام، الآيات: ٧٦-٧٨.

- ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾(١).

- ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾(٢).

إنَّ الربَّ في هاتين الآيتين وهميٌّ وهو معنى في غير موقعه، ولا منطبقٌ على مرجعه الحقيقي؛ إذ يُطلقُ على الأحبار والرّهبان والمسيح وفرعون. وكلُّ أولئك لا يستلزم وجودُهم وجودَ طرفٍ مقابلٍ لهم يخلق بينهما معنى إضافيًّا. وكذلك لا يستلزم وجودُ اليهود وقوم فرعون وجودَ الأرباب الاعتباريّة.

- ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾(٣) إنَّ الربَّ في الآية يمثّلُ مرتبةً من مراتب الرّبوبية التي طرفاها: الحاكم والمحكوم؛ لأنَّ الحاكمَ والملكَ يقوم بنوع من تربية المجتمع.

المجموعة الثّالثة: يُضاف (ربّ) إلى بعض الموجودات غير الإنسان منها:

- ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾(٤).

---

(١) سورة التَّوبة، الآية: ٣١.

(٢) سورة النّازعات، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٣) سورة يوسف، الآيتان: ٤١-٤٢.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦.

- ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾[١].
- ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[٢].
- ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾[٣].
- ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[٤].
- ﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴾[٥].
- ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾[٦].
- ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾[٧].
- ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾[٨].

كلُّ هذه الآيات تؤلّفُ فيها الإضافةُ النحويّةُ مركّبًا لغويًّا يجمع (ربّ) الاسم النّكرة وغيره من الأسماء المعارف: السَّمَاوَاتِ والضمير (ها) العائد إلى الأرض واسم الإشارة (هَذَا)و (هَذِهِ) والْمَشْرِقَيْنِ والْمَشَارِقِ والْعَرْشِ والْفَلَقِ للدَّلالة على تعريف هذه الاسم (ربّ)

(١) سورة الصَّافات، الآية: ٥.
(٢) سورة الزّمر، الآية: ٦٩.
(٣) سورة قريش، الآية: ٣.
(٤) سورة القصص، الآية: ٩١.
(٥) سورة الرّحمن، الآية: ١٧.
(٦) سورة المعارج، الآية: ٤٠.
(٧) سورة المؤمنون، الآية: ١١٦.
(٨) سورة الفلق، الآية: ١.

بتلك الأسماء، وللإشارة إلى ظهور الربّ الحقيقي وتجليه في تلك المخلوقات. ما يعني سعة التربية الإلهيّة واشتمالها لكلّ الموجودات الظاهرة لوعينا والغائبة عنه. ولعل في تكرار الربّ مع إضافته إلى بعض الأسماء وإلى العالمين يُوحي بتنوّع الرّبوبيّة وتعدّد مراتب تجلياتها في كلّ عالم من عوالم الوجود في قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

المجموعة الرَّابعة: الاسم (ربّ) موصوف بصفة في الآيتين:

- ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[2]. وههنا يقترن الربّ بقوم سبأ في إطار الرّبوبيّة التي تتمثّل بالحاكميّة بين الحاكم والمحكوم.
- ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[3] وهذه الصّفة في ﴿ رَبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ تُبينُ اتّصافَ الربّ بالرّحمة الخاصّة دون أنْ تحدّد مَنْ ينطبق عليه معنى الربّ. وسياق الآية يبيّنُ تضايفه مع أصحاب الجنّة، فهو ربٌّ رحيمٌ بهم. ولعله من شؤون اللّه تعالى ربٍّ كلّ شيء.

المجموعة الخامسة: ربّ مضاف إلى مصدر في الآية الكريمة:

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٣٦.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٥.

(٣) سورة يس، الآيات: ٥٥-٥٨.

- ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[١].

استعمل (ربّ) مرتين بالإضافة إلى ضمير المخاطَب (الكاف) المشير إلى الرّسول محمد ﷺ. وإلى المصدر (العزّة).وهي «إضافة التنزيه إلى قوله: «ربّك» أي الربّ الذي تعبده وتدعو إليه، وإضافة الربّ ثانيًا إلى العزة المفيد لاختصاصه تعالى بالعزة فهو منيع الجانب على الاطلاق فلا يذله مذل ولا يغلبه غالب ولا يفوته هارب»[٢].

إنَّ التَّدقيقَ في استعمال الربّ في هذه السّياقات القرآنيّة يصل إلى المعطيات الدلالية الآتية:

١ - يحتلُّ الربُّ موقعَ الصَّدارة في المركب الإضافي. فهو مضاف إلى مقابله. ما يعني أنّ له الأصالةَ، وبه يُفهم المعنى المقابل له. فقد ثبت تصورُه أوَّلًا قبل تصوّر مقابله «فهاهنا ذاتٌ هو الرّب وشيءٌ هو المربوبُ لضرورة لزوم الإضافة تحقّقَ المضافَيْن لكن شيئيّةُ ذلك المربوب وكلُّ شيء دونِه، فهو من الرّبّ فالمربوبُ في نفسه لا شيء»[٣]. ويُحيل معناه على معنى ملازمه المرتبط به على نحو التَّلازم ثانيًا.

٢ - يُضاف إلى (ربّ) بعض الأسماء مثل أمر وآيات وغيرهما. وهذه الأسماء التي تقع مضافًا إلى الربّ ليست مقابلًا دلاليًّا له. وإنّما لها وظائفُ دلاليّةٌ بما قبلها. ويبقى الاسم «الرّب» مضافًا إلى مقابله في الإضافة النَّحويّة الثَّانية. فلم تمنع إضافةُ

(١) سورة الصَّافات، الآية: ١٨٠.
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ١٧٩.
(٣) شرح توحيد الصّدوق: ٢/ ١٦٧.

الأسماء غيرِ المتقابلة له من تقدّمه على الأسماء المتضايفة معه.

٣ ـ يُضاف الاسم «ربّ» إلى الاسم «كلّ»، فيُعطي تصوّرًا شاملًا عن حاجة الجميع إليه في الوجود وفي التصوّر. فكلُّ شيءٍ مربوبٌ في وجوده الخارجي للربّ. وكلُّ شيء يحتاج في تصوّره أنَّه مربوب إلى تصوّر ربّه.

٤ ـ يُضاف الاسم «ربّ» إلى أسماء خاصّة مثل الضمائر، وموسى والفلق وغيرها؛ فيقدّم لنا تصوراتٍ خاصّةً تستلزم حاجةَ هؤلاء الأفراد إليه في الوجود والتَّصور أيضًا.

٥ ـ إنَّ تقابلَ التَّضايفِ يشمل العاقلَ كالإنسان، وغيرَ العاقل كالبلد. فالأشياءُ العاقلةُ وغيرُ العاقلة تابعةٌ لربّها سواء في البنية اللغوية أم في الوجود الخارجي.

٦ ـ يضاف «ربّ» إلى أسماء للدَّلالة على ادّعاء الرّبوبيّة في الخطاب بلا وجود تلازم بين المدّعي ومَنْ يراهم مربوبين له. أو يستعمل الفعل (ربّى) للدّلالة على وجود تلازم بين الطَّرفين في مستوى التَّربية الاجتماعيّة والتَّداول العرفي.

٣ - الرَّازق والمرزوق

الرَّازقيةُ إضافةٌ بين رازق ومرزوق، يتجلّى الأولُ في القرآن الكريم بالاسم الأحسن «الرَّازِقُ، والرَّزّاقُ: في صفَةِ اللّه تعالى؛ لأنّه يَرْزُقُ الخَلْقَ أَجمعين، وهو الَّذي خَلَقَ الأَرْزاقَ، وأَعطى الخلائِقَ أَرْزاقَها، وأَوْصَلَها

إليهم»[١]. والذي يُظهر رزقَه عند مرزوقٍ ينتفعُ بذلك الرّزق؛ لـ«أنَّ الرّزق يحتاج إلى فرض مرزوق يرتزق به»[٢]. وهو فرضٌ في الوجود الخارجي وفي التَّصوّر الذّهني. وهذا الاسم هو المتحكّمُ بجميع الأرزاق التي تنشأُ منه، وتتنزّلُ على كلّ مرزوقٍ من خلقه ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾[٣] فاللّه تعالى مصدر الرّزق، وكلّ ما سواه مرزوق له؛ لـ«انحصار الرزق فيه تعالى وأنّه لا يأخذه ضعف في إيصال الرزق إلى المرتزقين على كثرتهم»[٤].

ونجدُ بعضَ الأنبياء يدعو بهذا الاسم؛ لقدرتِه على تحقيق الرّزق لهم كما هو مفهوم من تضرّع عيسى عليه السلام؛ إذ ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٥] وما يلفت النَّظرَ فعلُ الأمر (ارْزُقْنَا) الدَّال على الدّعاء والحاجة والفقر عند الدّاعي وقومه. والمستلزم التّوجّهَ إلى الرّازق الغني الكريم. فالنّطق بهذا الخطاب يكشف نسبةً بين المسترزق والرَّازق الذي هو خير الرَّازقين؛ ويدلُّ على علمٍ راسخٍ لدى عيسى عليه السلام بأنَّ اللّه هو الذي يقدر على إنزال المائدة من السَّماء دون غيره. وغيرُه من الرَّازقين إنّما يمثّلون تجلياته بإظهار رزقه وانتقاله منه إلى المرزوقين. إنّ الاسم الإلهي ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يُقيم علاقاتٍ عامةً بينه والمرزوقين. فتارةً يوسّع دائرةَ تجلياتِ رزقِه،

(١) تاج العروس – الزبيدي: ٢٥/ ٣٤٢.
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٣/ ١٣٩.
(٣) سورة الذَّاريات، الآيتان: ٥٧–٥٨.
(٤) الميزان في تفسير القرآن: ١٨/ ٣٨٩.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١١٤.

وتارةً يُضيّقها في إطار ربوبيته: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[1].

وهذا الشَّأنُ العظيمُ لفاعلية الرَّازق يظهر في آياتٍ أُخَرَ منها ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[2] ويبدو منها التَّعلّقُ القريبُ بين الشُّهداء والمتوفَّين في سبيل اللّه ورازقهم اللّه تعالى. الذي يُغدقُ عليهم رزقَه الحسنَ؛ لاتّصافه باسم خير الرَّازقين. وتكشف الآيةُ دوامَ الرَّابطة بين الطَّرفينِ، وبقاء الرازقيّة بينهما بدليل الفعل المضارع المستمر ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.

فهم على اتّصالٍ دائمٍ بفعله تعالى، ويتجلّى اللّهُ تعالى باسمه الرَّازق في ذلك العالم بأحسنَ تجليات الرّزق عندما يُوصل رزقَه الحسنَ إليهم، «فهو جلّ وعلا يرزقهم مثلًا بما أنّه رازق كريم جواد غني رحمن»[3]. وذلك الرّزقُ كثيرٌ وعظيمٌ ومتنوّعٌ. ولا ينتهي: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٩ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١ ۞وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[4].

فكلُّ تلك العوالم الغائبة عن الحسّ وموجوداتها تكشف الرّزقَ

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ٥٨-٥٩.

(٣) تفسير البصائر - رستكار الجويباري: ٣١/ ٣٣٤.

(٤) سورة ص، الآيات: ٤٩-٥٤.

غيرَ المحدود للّه تعالى، فهو تعالى حاضرٌ عند كلّ رزق ومرزوق. والجنَّاتُ بما فيها من فاكهة كثيرة وشراب وقاصرات الطَّرف كلّها رزقٌ أعدّه اللّهُ تعالى لعباده المتَّقين. فإنَّ كلَّ متقٍ للّه تعالى دالٌّ بالملازمة على رازقه من جهة الإضافة بين الرَّازق والمرزوق. وكذلك التَّقوى تقتضي وجود مَنْ يُتَّقى منه.

فهذه الصّفة في هؤلاء تستوجب علاقتين: الأولى من معنى التَّقوى الذي يقع بين طرفين: متقٍ ومتَّقى منه. والثَّانية مفهومةٌ من سياق الرّزق الذي يقع بين: رازق ومرزوق. وقد استعمل القرآن الكريم (المتّقين)؛ لتعليل حصولهم على الرّزق. فجعل التَّقوى سببًا لذلك الرّزق. ويمكن أنْ أبيّنَ التَّصوّرَ القرآني العام للتَّضايف في آيات الرّزق بقسمتها على مجموعات. لكلّ مجموعةٍ صفات خاصّة بصيغة مفهوم الرّزق المستعمل فيها. فهي تشملُ مجموعتين:

المجموعة الأولى

استعمل فيها الاسم، وتشمل الأسماء:

١ - المصدر

استعمل المصدر مضافًا إلى الاسم الدَّال على المرزوق كالضمير، أو محلّى بأل أو منونًا في الآيات الآتية:

- ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾[1].
- ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ﴾[2].

(١) سورة هود، الآية: ٦.

(٢) سورة الرَّعد، الآية: ٢٦.

- ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا ﴾[١].
- ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[٢]. إنَّ هذه الآيات المباركة تتجلّى فيها قيمةُ المعنى في التَّضايف بين الرَّازق والمرزوق من خلال صيغة المصدر والكلمات المرتبطة بمعناه. فإنَّ الرَّزقَ يستوجب موجِدًا له.

ويفرضُ مرزوقًا يُعطى له؛ لينتفع به. لـ «أنّ الرزق والمرزوق متلازمان لا يتفارقان فلا معنى لموجود يطرأ عليه طور جديد في وجوده بانضمام شيء أو لحوقه إلا مع وجود الشيء المنضم أو اللاحق المشترك معه في طوره ذلك فلا معنى لمرزوق مستمد في بقائه ولا رزق له، ولا معنى لرزق متحقق ولا مرزوق له كما لا معنى لزيادة الرزق على ما يحتاج إليه المرزوق»[٣]. أمّا الرّزقُ فهو حاضرٌ بلفظه في لغة النّص القرآني، ومرتبطٌ بالرَّازق من خلال الاسم (اللّه) الذي يتضمَّن الاسم (الرَّازق)؛ لأنّه جامع كلَّ الأسماء الحسنى بدليل الآية: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٤].

فمنه تعالى يُنزّلُ الرّزقَ من مقام اسمه الرّازق على المرزوقين

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٠.
(٢) سورة ق، الآيات: ٩-١١.
(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٨/ ٣٧٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

الحاضرين من خلال الأسماء الدّالة عليهم. كالدّواب والعباد الذين ليس عندهم رزقٌ من أنفسهم؛ لأنَّهم لم يتَّصفوا بكمال الرّزق حتى يرزقوا أحدًا. وبيّنت الآيةُ خلوَّ هؤلاء من صفة الرَّازق، فهم فاقدون لها. فلا يستطيعون رزقَ ذرةٍ لغيرهم ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾[1].

٢ - اسم التَّفضيل

استعمل اسم التَّفضيل (خير الرَّازقين)في جملة من الآيات:

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[2].
- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[3].
- ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[4].
- ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[5]. هذه الآيات تُبيّن أثر هذا الاسم الكريم في ظهور الرّزق الأحسن وانتشاره على

(١) سورة الحجر، الآيتان: ١٩-٢٠.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الحج، الآية: ٥٨.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٧٢.
(٥) سورة الجمعة، الآية: ١١.

المرزوقين، وذلك الرّزقُ يتمثّل بمائدةٍ سماويّةٍ يُنزلها الاسمُ بما هو كمال إلهي من مرتبة الفعل الإلهي على عيسى عليه السلام والحواريين. ويتجلّى في رزقٍ حسنٍ يناله الشّهداءُ ومَن مات في هجرته إلى اللّه تعالى. ويظهر في خراج الربّ الذي يُعطيه للرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم. ويشمل الرّزق الإلهي المخزون عند اللّه تعالى.

٣ ـ صيغة المبالغة

وردت في آية واحدة هي: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾[1]. وقد سبقت صيغة (الرَّزاق) المبالغة بأسلوب ينفي إرادةَ اللّه تعالى للرّزقِ؛ لأنّ الرَّازق ينحصر في طرفٍ واحدٍ هو اللّه تعالى. وما سواه طرفٌ مرزوق؛ ليس لديهم رزقٌ من أنفسهم، فـ«ما أريد منهم رزقًا لأنّي أنا الرَّزاق لأني أنا اللّه تبارك اسمه. والتعبير بالرَّزاق - اسم مبالغة - وكان الظاهر أن يقال: إن اللّه هو الرَّزاق للإشارة إلى أنه تعالى إذا كان رازقًا وحده كان رزاقًا لكثرة من يرزقه»[2].

المجموعة الثَّانية

استعمل فيها الفعلُ في حالاته الثَّلاث:

١ ـ الفعل الماضي

جاء في مجموعة من الآيات منها:

(١) سورة الذّاريات، الآيتان: ٥٧-٥٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٨/ ٣٨٩.

- ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾[١].
- ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[٢].
- ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾[٣].
- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ﴾[٤].
- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٥].

إنَّ الفعل (رزق) في هذه الآيات مسندٌ إلى ضمائر الجماعة (نا) وإلى اسم الجلالة اللّه وإلى ضمير مقدّر يرجع إلى الاسم اللّه. ما يعني أنَّه صادر من اللّه تعالى في مرتبة فعله، وذلك الفعل (رزق) يتحقّق من جهة نزوله من الرَّازق تعالى، ومن جهة تقبّله عند المرزوقين، فيبدو بارزًا في الطيّبات في هذه الدّنيا.

٢ ـ الفعل المضارع

استعمل في مجموعة من الآيات منها:

(١) سورة البقرة، الآية: ٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٨.
(٣) سورة الأنفال، الآيتان: ٣-٤.
(٤) سورة النَّحل، الآية: ٧٢.
(٥) سورة غافر، الآية: ٦٤.

- ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[١].
- ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٢].
- ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[٣].
- ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[٤].

يظهر الفعل المضارع (يرزق)للدّلالة على وجودِ فاعله الرَّازق، ووجودِ مفعوله المرزوق؛ لأنَّه يتحقّق بهما، ولا بدَّ أنْ يتنزّلَ من خزائنه، ويفاضَ من وجودِه العالي، وأنْ يتلقّاه الوجودُ الدّاني المحتاجُ؛ ليسدَّ به حاجتَه وفقرَه. وذلك الرّزقُ مستمرٌّ بدلالة صيغة الفعل المضارع في هذه النشأة وشاملٌ كلَّ موجود، فهو يأتيه رزقُه المتنوّعُ كالماء والهواء والغذاء والصّحة والعلم... وغيرها. وهو رزق دائم وشامل لا انقطاع له في النشأة الأخرى.

٣ ـ فعل الأمر

استعمل في آيات معدودة:

- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣١.
(٤) سورة الشّورى، الآية: ١٩.

ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾[١].

- ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[٢].
- ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[٣].
- ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[٤].

إنَّ الفعل (ارزق) له دلالتان: في الآيتين الأوليين أفاد الدَّعاءَ من إبراهيم عليه السلام؛ لتحقيق الرّزق من فاعله الحقيقي، وإيصاله إلى المرزوقين وهم أهل مكة من المؤمنين، وبعض ذريته. والمعنى الثَّاني طلبٌ حقيقي في الآيتين الأخريين ينجزه المسلمون بإعطاء رزقٍ من أموالهم للسّفهاء وذوي القربى واليتامى والمساكين.

ويمثّل هؤلاء الرّازقون من النّاس نماذجَ واقعيةً لمرتبة من مراتب الرّازق الحقيقي. فهم يملكون المالَ الذي رزقهم اللّهُ تعالى. ويأمرُهم بالتحلّي بصفة الرَّازق عندما يبذلون بعضَ أموالهم للمحتاجين إليها. إنّهم برزقهم لغيرهم يصيرون مظاهرَ لاسم الرَّازق ما يعني أنَّ الرَّازق الحقيقي

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٣) سورة النّساء، الآية: ٥.
(٤) سورة النّساء، الآية: ٨.

أراد أنْ يفيضَ رزقَه عليهم أولًا. وأراد أنْ يُوصلوا رزقَه إلى غيرهم. فيبقى الرّزقُ نازلًا منه. وتتّسع دائرة رزقه؛ فتشمل الجميعَ فهم مرزوقون. فتظهر فيهم صورةُ رزقه بمعنى التَّضايف: الرَّازق (اللّه) والمرزوق (النّاس). وتتجلّى بمعنى آخر عندما يكونون مثالًا للرَّازق المتضايف مع غيرهم من النّاس. وبذلك يتبيّنُ أنّ للرَّازق معنى عامًا. يُطلق مرةً على اللّه الرَّازق الحقيقي الذي يشملُ رزقُه الجميعَ. ويُطلقُ أخرى على غيره ممّن تحلّى بصفة الرّزق بإيصاله للرَّزق الإلهي إلى مَنْ يحتاجُه.

٤ - المالك والمملوك

النَّص القرآني استعمل من مادة «م ل ك» كلماتٍ تشكّل ركنًا من أركان النّسبة الإضافيّة تُحيل على مقابلاتها مباشرة؛ لأنّها معانٍ متلازمةٌ. فقد ذكر بالمر الفعل (يملك/ يعود إلى)مع مجموعة من الأمثلة للمعاني المتعاكسة[١]. ويُفهم من القرآن تصوّرات معرفيّة عن حقائق الوجود. وذلك بتقديم رؤية رجوع المخلوقات إلى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[٢]. وهذا الملك «معنى آخر حقيقي... وهو نحو قيام أجزاء وجودنا وقوانا بنا فإنَّ لنا بصرًا وسمعًا ويدًا ورجلًا، ومعنى هذا الملك أنها في وجودها قائمة بوجودنا غير مستقلة دوننا بل مستقلة باستقلالنا. ولنا أن نتصرف فيها كيف شئنا وهذا هو الملك الحقيقي. والذي يمكن انتسابه إليه تعالى بحسب الحقيقة هو حقيقة الملك»[٣]. وتتفرّع من المعنى العام الذي يتضايف فيه: (المالك والملك) أنواعٌ من المالكيّة

(١) ينظر: علم الدلالة – بالمر: ١١٣.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢١.

تجعل التَّحليلَ الدَّلالي يؤطرُها في مجموعاتٍ من الآيات القرآنيّة:

المجموعة الأولى

استعمل فيها اسمُ الفاعل «مالك» مضافًا إلى «الملك» وهو اسم إلهيّ يجعل الملك حقيقيًّا منسوبًا إلى اللّه تعالى في آية واحدة:

- ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[1].

فهذه الإضافةُ النَّحويّةُ المكوّنةُ من المضاف اسم الفاعل وهو الفاعل النَّحوي ومفعوله تُوحي أنَّ هناك إضافةً دلاليّةً يشكّل المضافُ النَّحوي مقابلًا دلاليًّا للمفعول الذي يمثّل المقابل الدَّلالي الثَّاني في تقابل التَّضايف: مالك والملك (المملوك)؛ لكون أحدهما يتلازم مع الآخر بالضَّرورة المعنويّة والوجوديّة.

وما يُفعّلُ الوجودَ اللَّفظي للمالك وانسرابَه في أنسجة النّص هو تحريكُ الملك الحقيقيّ من مقابله الإلهي إلى مقابلات داخلة في الملك الإلهي نفسه. فجئ بالفعل ﴿ تُؤۡتِي ﴾ لصناعة لغة حاملة لبُنى دلاليّة تستلزم تجليَ المالكيّة بين الملك وأطراف جديدة تنالُ مقدارًا من صفة المالك من غير استقلال في المعنى والوجود الخارجي. فمن يشأ اللّهُ تعالى إتيانَه الملك يصيرُ مالكًا لذلك الملك الذي آتاه اللّه تعالى؛ لذلك يمتاز المالك الإلهي بقدرته على أنْ يتّصف بهذه الصَّفة الواقعيّة عندما يملك الملكَ كلَّه الممتدَّ إلى كلّ شيءٍ وهو

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

الواقع فعلًا؛ فيُعطي النّص القرآني تلك الرؤيةَ الكليّةَ في كونِ الوجود الممكن يتَّسم بوحدة منسجمة متآلفة مملوكة كأنّها شيءٌ واحدٌ تقبضه اليدُ الإلهيّة. وتلك الوحدة المملوكة يصعب تصوّرُها فضلًا عن إدراكها بالعقل مباشرةً. وإذا نظر العقلُ المتدبّرُ في أيّ شيءٍ من أشياء الوجود الممكن وجده جزءًا مملوكًا من أجزاء الملك العام، فيصحُّ أنْ نقول: إنَّ الوجودَ كلَّه مملوكٌ للمالك الحقيقي. ونقول: إنَّ كلَّ شيء وحده مملوكٌ له أيضًا. فتكون المالكيّة شاملةً معنيين متضايفين: مالكيّة عامة: المالك والمملوك (الخلق كلّه). ومالكيّة خاصة المالك والمملوك (شيء واحد). والمالكيّة العامة واحدة شاملة كلَّ شيء. والمالكيّة الخاصّة متكثّرةٌ بعدد الأشياء المملوكة. كذلك يُعطي المالكُ الإلهي بقدرته مرتبةً من الاسم «المالك» بعضَ خلقِه. ويصحُّ اتِّصافُهم بهذه الصَّفة عندما يُملّكُهم بعضَ ملكه الذي لا ينفدُ؛ لذلك نال بعضُهم ذلك الوصف اللّغوي في الآية:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾[1].

وظهرت المالكيّة في مقام لغوي نازل يتداولُ في المجتمع البشري. ويصير الأفرادُ مالكين بعضَ الأنعام. فتكون الدَّلالةُ المتقابلةُ مؤلفةً من: المالكين والأنعام. وهي متفرعةٌ من دلالة قرآنيّة أركز وأعمق وهي المالكيّة الحقيقيّة التي يُشيرُ إليها الفعلان «خلق» و«عمل»؛ فالخالقُ والعاملُ هو المالك الحقيقي لتلك الأنعام.

المجموعة الثَّانية

فيها المصدر، وهي تقسَّم مجموعتين بناءً على نوع الملك؛ لأنَّ

(١) سورة يس، الآية: ٧١.

«الأصل... هو التسلّط على شيء بحيث يكون اختياره بيده، وهذا التسلّط إمّا بالنسبة إلى ذات الشيء أصلًا وفرعًا، كما في مالكيّة اللّه لخلقه. أو بالنسبة إلى الذات اعتبارًا، كما في المملوك والمبيع... وإما بالنسبة إلى أُمورهم ووظائفهم الاجتماعيّة، كما في تسلّط الحاكم والسلطان»[١]. فهناك:

١ ـ **آيات** فيها الملك الحقيقي للّه تعالى

- ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢].
- ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾[٣].
- ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[٤].
- ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[٥].
- ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٦].
- ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾[٧].

بعضُ هذه الآيات تتحدّث عن ملك اللّه تعالى الحاكمِ على السَّماوات والأرض، فهما مقهورتان له، ويظهر فيهما ملكُه في تصوّر

(١) التحقيق في كلمات القرآن – حسن المصطفوي: ١١/ ١٧٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٩.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٢٠.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢.
(٥) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٦) سورة الملك، الآية: ١.
(٧) سورة الحج، الآية: ٥٦.

يشمل: المالك «اللّه» والمملوك «السَّماوات والأرض». وبعضُها يتعمّق فيه التَّصوّرُ؛ ليشمل: المالك «اللّه» والمملوك «السَّماوات والأرض وما فيهنَّ». وبعضُها يتّسعُ التَّصوّرُ فيه؛ فتكون مالكيّةُ اللّه شاملةً كلَّ شيء: المالك «اللّه» والمملوك «الملك» المساوي كلَّ شيء.

٢ - **آيات** فيها الملك لبعض الخلق:

- ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾(١).
- ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٢).
- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٣).
- ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٤).

يتبيّنُ من الآيات نوعان من الملك: ملكٍ يمثّل بعضُ النّاس طرفًا في المالكيّة والملك نفسه طرفٌ مقابلٌ كما في ملك الأنبياء عليهم السلام

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.
(٤) سورة الزّخرف، الآية: ٥١.

كداود عليه السلام ويوسف عليه السلام وقد اتَّسم بكونه مأتيًّا من المالك الحقيقي «اللّه». ما يعني أنّ ملكَهم يُمثّل تجلّيًا للمالكيّة الحقيقيّة. فهو صورةٌ مصغَّرةٌ لها متجسّدةٌ في الأرض. والنَّوع الثَّاني ملك السَّلاطين المتكبرين في الأرض كملك فرعون تظهر فيه صورة الأنا بعد تصوّر انسلاخ صورة المالكيّة الحقيقيّة منها. وهذا ادَّعاء متوهّم للملك. وفي واقعه هو عطاء إلهي يمدُّ اللّه تعالى فرعونَ منه.

إنَّ النَّص القرآني يؤكّد أنَّ المالكَ الإلهي يُجري ملكَه. ويُنزله في بعض النّاس ﴿ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾[1]؛ لتحقيق السُّلطة بالعدل؛ فيكونوا مظاهرَ للمالك الحقيقي إلا أنَّ بعضهم يشكّلُ تجلّيًا معكوسًا موهومًا لمالكيّة نفسه وهواه، ويقطعُ الصّلةَ بالمنبع الحقيقي. فنجدُ صورةً مشوّهةً للمالك المتسلّط يُظهر فيها نفسَه بصورةٍ مناقضةٍ لصورته الواقعيّة التي تتشكّل في تقابلين متضايفين أحدهما واقعي: [المالكيّة المؤتاة من اللّه: المالك «فرعون» والملك «مصر»] وتقابلها [المالكيّة الموهومة: المالك «الربّ» والملك «مصر»].

المجموعة الثَّالثة

استعمل فيها الفعل المضارع المنفي، ومنها:

- ﴿ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ ﴾[2].
- ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٦.

(٣) سورة يونس، الآية: ٤٩.

- ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[١].
- ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾[٢].

وهذه الآيات تنفي مالكيّةَ غيرِ اللّه تعالى لأيّ شيء صغير كالذَّرة أم أكبر منها كالرّزق. وهذا النّفي يؤكّد أنَّ جميعَ الأشياء المذكورة في الآيات لا تدخل مع أشياء أُخَر؛ لتكوين إضافة بين المالك والمملوك. فكلُّ ما يعبد من دون اللّه تعالى. وكلُّ انسانٍ ليس في ذاته القدرة على التسلّط على غيره حتى يكون مالكًا، ويكون ذلك الشيءُ مملوكًا له.

وانتفاء المالكيّة لا ينقضُ المالكيّةَ التي ثبتت في الآيات السَّابقات؛ لأنّ المالكيّة المنفيّة هي الحقيقية التي هي شأنٌ إلهي، واسمٌ للّه تعالى لا يشاركُه فيها أحدٌ. والمالكيّةُ لغيره إنّما هي فرعٌ من مالكيته، أو هي مالكيّةٌ بحسب الجعل الاجتماعي الذي يزولُ بسرعة «وهذا في الاجتماع معنى وضعي اعتباري غير حقيقي... الملك الاعتباري الذي يبطل ببطلان الاعتبار والوضع، ومن المعلوم أن الملك الحقيقي لا ينفك عن التدبير فإن الشيء إذا افتقر في وجوده إلى شيء فلم يستقل عنه في وجوده لم يستقل عنه في آثار وجوده، فهو تعالى ربّ لما سواه لأن الربّ هو المالك المدبر وهو تعالى كذلك»[٣].

(١) سورة النَّحل، الآية: ٧٣.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٢.
(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢١.

الفصل الثَّاني:

أسماء التَّضايف الاجتماعي

بعد أنْ اتّضح أثرُ الأسماء الإلهيّة في إنتاج لغة التَّضايف في النَّص القرآني وتفعيل المعنى في أعماق النَّص واتّساع حدوده في الإدراك، وخلق حالات التَّلازم بين الأسماء والأشياء حتى تكون كلّها دوالًّا على صاحب تلك الأسماء، ومنزل النَّص. نجد التّضايف يستمرُ في سياقات القرآن المعبّرة عن المجالات الاجتماعيّة.

وينشأُ في علاقاتٍ متعدّدةٍ بين أسماء الأشخاص ذوي القرابات والرَّوابط الاجتماعيّة المختلفة. و«الأسماء العلاقيّة... نحو: «أخ» و«أب» تعتبر تابعة، في كيفية إحالتها، لكيان إحالي آخر، أي أنها تحيل على أفراد يقيمون علاقة مخصوصة بفرد آخر على الأقل. ففي مثل هذه الحالات يتطلب رأس المركب الإضافي، مباشرة، كيانًا آخر بالنظر إليه تقوم العلاقة. ومن العلاقات التي تبرز فيها أهمية مثل هذه الرؤوس الاسمية العلاقية علاقات الإضافة الدالة على القرابة. فرأس مثل «أب» يتطلب مباشرة كيانًا آخر بالنظر إليه تقوم علاقة: «هو أب ص» أي أن «أب» يتطلب، لاستكمال إحالته، ابنًا أو بنتًا نحو: (٧) أب زيد. (٨) أب هند»[١].

(١) النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة «مبادئ وتحاليل جديدة - محمد غاليم: ٩٧.

ويظهرُ في النَّص القرآني نوعان من العلاقات الاجتماعيّة هما: التَّضايفُ النَّفسي بين الشَّيء ونفسه. وتتضمن بنيةُ التّضايف الدَّلالية طرفًا واحدًا يتقابل مع نفسه في معنى من المعاني، فيكون ذلك الشَّيءُ منظورًا إليه من جهتين، وكلُّ جهة تمثّل طرفًا في علاقة التَّضايف؛ لذلك يمكن أنْ يُطلق عليه التَّضايف النَّفسي نسبةً إلى علاقة الشَّيء مع نفسه في مرتبتين من مراتبه أو قوتين من قواه أو معنيين تتصف بهما ذاته. والتَّضايف الاجتماعي بين الشَّيء وغيره. فهي تحتوي على طرفين متقابلين، ويُجرى التَّحليل على النوعين معًا لوجود معانٍ مشتركةٍ بينهما في النَّص القرآني. وسأحلّل البنيةَ الدَّلاليّةَ للمعاني الجامعةَ بينها في الأسماء الآتية:

١ - الزّوج والزّوجة

تُنتج علاقةُ الزَّوجيّةِ في إطارٍ دلالي عام مبني على الأصل الأول للمعنى؛ وهو «الزاء والواو والجيم أصل واحد يدلُّ على مقارنَة شيء لشيء. من ذلك الزّوج زوج المرأة. والمرأة زوج بعلها»[١]. ثم تنتشرُ تلك المقارنة بين القرين وقرينه في كلمات كثيرة يُسجّلها الاستعمال التَّداولي. فيُخلق معنى التَّضايف من طرفين متلازمين: زوج وزوجة؛ و«يصبح التضايف قائمًا بين مفهومين إذا ما تعذر علينا تمثل المتعلق الأول دون تمثل المتعلق الثاني، كما يظهر ذلك في أزواج المفاهيم التالية: (علة/ معلول) و(زوج/ زوجة) و(والد/ ولد)... يستدعي كل زوج الزوج الذي يوافقه»[٢].

(١) معجم مقاييس اللغة – أحمد بن فارس: ٣/ ٣٥.

(٢) الظاهراتية وفلسفة اللغة «تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية: ٩٨.

يُحيلُ النَّص القرآني على الزَّوجيّةِ الأولى في خطابه للزَّوج الأول الذي يمثّلُ فردًا بشريًّا نال مرتبةَ النّبوة، واستحقَّ الخطابَ الإلهي؛ للدّخول في الجنَّة للالتذاذ بالحياة الطيّبة الرَّغيدة: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1].

وذلك التأسيسُ الأول للزَّوجيّة تحت إشراف السَّماء سيظلُّ أصلًا معرفيًّا يُؤسس للإضافاتِ الجديدةِ من الزَّوجيّات التي ستنشأ بعد الزَّوجيّة الأولى: أنت (آدم) وزوجك (حواء)؛ لتحقيق السَّكنَ وإعمار هذه الأرض من خلال استمرار أبناء آدم عليه السلام بإيجاد هذه الرَّابطة التي أنشأت طرفيها القدرةُ الإلهيّة تحت فعلية الاسم الخالق بحدث يتمازج فيه الطَّرفان (خلقَ منها زوجَها).

ويتكاثرُ منه أطرافٌ أُخَرُ؛ لتتواصلَ الزَّوجيّةُ في الظّهور. وهذا المعنى ضروري وذو قيمة عليا في القرآن حتى صار موضوعًا محوريًّا يُخاطب به النَّاسَ كافةً؛ لتذكيرهم بالنّعمة والسَّبب الذي جعله اللّهُ تعالى وسيلةً لإيجاد النَّاس. فلولا خلق الزَّوج والزَّوج الآخر ما وجد النَّاس ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾[2]. ويظهر في الآيات نوعان من الزَّوجيّة:

١ ـ الزَّوجيّة العامّة

ذكرت في آيات الخلق، منها:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

(٢) سورة النّساء، الآية: ١.

- ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾[1].

- ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[2].

- ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[3]. وهذه الزَّوجيّة شاملة كلَّ الموجودات، ويتوقَّفُ تحقّقُها على علاقة سببيّة سابقة هي الخالقيّة. فما لم تتحقّق النّسبة بين الخالق والمخلوق (الزَّوجين) لا يمكن أنْ تتحقّق الزَّوجيّة العامة، وكذلك الخاصّة. فهناك تلازم بين تضايفين: الخالقيّة والزَّوجيّة في جميع حدودها.

٢ ـ الزَّوجيّة الخاصّة

تضمنتها آياتٌ منها:

- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[4].

- ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[5].

---

(١) سورة النَّجم، الآيات: ٤٢-٤٥.

(٢) سورة القيامة، الآيات: ٣٦-٣٩.

(٣) سورة الذَّاريات، الآية: ٤٩.

(٤) سورة هود، الآية: ٤٠.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

- ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[١].
- ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾[٢]. في هذه الآيات تتنوّع الأطراف التي تشكّلُ التَّضايف الزّوجي مثل: نوح عليه السلام وزوجه، وكلّ زوجين من المخلوقات التي أُمر بحملها في سفينته، وزكريا عليه السلام وزوجه، وكلّ زوج من نبات الأرض، وأزواج أصحاب الجنَّة. وكلّها تدلُّ على أنّ النَّظام الكوني الأحسن مبني على الزَّوجيّة في جميع مكوناته وتفاصيله سواء في هذه الحياة أم في الحياة الآخرة.

٢ - الأب والابن

الأبوّة مصدر لا فعل له[٣]. ويدلُّ على إضافةٍ ناشئةٍ بين الأب والابن؛ لأنَّ «الأب: الوالد، ويُسمّى كلُّ مَنْ كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره أبًا»[٤]. فهناك سببيّةٌ بين طرفي المعنى المتضايف؛ كون الأب علةً معدّةً في إيجاد الابن، «فإنّ الأب هو الذي بناه وجعله اللّه بناءً في إيجاده، ويقال لكلّ ما يحصل من جهة شيء أو من تربيته، أو بتفقده أو كثرة خدمته له أو قيامه بأمره: هو ابنه»[٥].

ويسمّى شخصٌ أبًا إذا كان له ابن. فالإضافةُ بينهما تدعو المتلّقيَ

(١) سورة ق، الآيتان: ٧-٨.
(٢) سورة الدُّخان، الآيتان: ٥٣-٥٤.
(٣) ينظر: دقائق التصريف - ابن المؤدب: ٧٣.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني: ٥٧.
(٥) نفسه: ١٤٧.

إلى فهم سلسلة العليّة النَّسبيّة، وعلة الإيجاد لكلّ أحدٍ منهم التي لا بدَّ أنْ تمرَّ من وجود أبٍ وأمٍّ وأجداد. كلّها مرتبطة بالربَّ ومحتاجة إلى تربيته؛ وليفهموا نعمَ ربّهم عليهم وعلى آبائهم. وقد ظهرت علاقةُ الأبوّة والبنوّة في مجموعة الآيات نذكر منها:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[1].

يُسمّى العمّ أبًا كعمّ إبراهيم عليه السلام فيكون طرفًا في الأبوّة: الابن (إبراهيم) وأبيه (عمّه). وهذه العلاقةُ الاجتماعيّةُ تتوقّف، وتفقد قيمتَها، وتنتهي عندما تتعارضُ مع العلاقة الإلهيّة. فإذا دخل الأب في علاقة العداوة مع اللّه تعالى: عدو (أبيه) وعدو (اللّه) انفصمت الأبوّة، وتزايل الطرفان، وافترق كلُّ واحدٍ منهما في علاقةٍ جديدةٍ. الأب في العداوة. والابن في المحبة الإلهيّة بين: الابن (إبراهيم) واللّه.

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2].

تتفاعلُ العلاقةُ «الأبويّة» بين يعقوب عليه السلام وبنيه في مقامات

(١) سورة التَّوبة، الآية: ١١٤.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٤-٦.

تداوليّة مختلفة. فنجدُ تمازجَ الطرفين: الأب (يعقوب)والابن (يوسف)في لجوء يوسف عليه السلام إلى أبيه، وإخباره الرّؤية وحكمة الأب في نصيحة ابنه بإخفاء رؤياه عن أبنائه الآخرين. ثم تبيين يعقوب للنّعم الإلهيّة التي ستظهر في وجود يوسف كما ظهرت في وجود آبائه.

فالأبوّةُ ممتدّةٌ من حاضر يوسف عليه السلام مع أبيه يعقوب إلى جدّه إبراهيم عليه السلام وعمّه اسحق عليه السلام. وهي تشكّل الامتدادَ النّبوي المتآزرَ والمتماثلَ بتجلّي النّعمة الإلهيّة عليه. فيوسفُ يشترك مع ثلاثة أنبياء يمثّلون الأبوّةَ المثاليّةَ التي تنال النّعمةَ من اللّه تعالى من خلال النّبوة. فلذلك أشار النَّص إلى ثلاثة مراتب من الأبوّة: (يعقوب ويوسف). و(إبراهيم ويوسف). و(اسحق ويوسف).

- ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾[1]. تظهر الأبوّةُ في صورةٍ مقابلةٍ لأبوّة يعقوبَ و(يوسف وأخيه). تتمثّل بأبوّةِ يعقوب وأبنائه الآخرين في تحاورهم معًا. فهم أنتجوا العلامةَ اللغويّةَ للأبوّة الخاصّة بهم مع استبعادهم يوسف وأخيه من هذه الأبوّة؛ فاقتصرت على الضمير الذي أحال على

(١) سورة يوسف، الآيات: ٧-١١.

أشخاصهم وأنفسهم: أَبِينَا = أب (يعقوب) ونا (أخوة يوسف).

وأخرجوا اسم يوسف وأخيه من هذه الإضافة في مركب لغوي يوحي بالانفصال في الفكر والمشاعر بينهم وبين (يوسف وأخيه)، ثم تكبرُ الفاصلةُ بينهم وبين أبيهم بوصفهم إيّاه (أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ). وكأنّ هذا الوصف يخلخل علاقةَ الأبوّة بين الطَّرفين حتى تكاد تشعر بأنَّ أباهم انفصل عنهم في ظرفٍ نفسي خاص به يتمثّل بالضَّلال المبين الذي يُوحي بأنّهم خارج ذلك الضَّلال المبين. في حين أنَّك تحسُّ بوجود إصرار من يوسف عليه السلام لتقوية علاقة الأبوّة بين جميع أطرافها؛ إذ خاطبهم قائلًا:

- ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[1].
- ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾[2].

نلمحُ معنى الأبّوة يتجسّدُ بين يعقوب عليه السلام وأخوة يوسف من خلال الإضافة النحويّة ﴿أَبِيكُمْ﴾ وإرجاع يوسف إلى هذه الأبوّة من خلال الإشارة اللغويّة ﴿إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ الدَّالة على الأخوّة المتفرّعة من الأبوّة؛ فالأخ يرتبط بأخيه من خلال أبيهما. ونجد إصرار يوسف عليه السلام على إدخال أخيه في الأبوّة من خلال قوله: ﴿بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ لتأكيد الأخوّة الثَّابتة بينه وبينهم والمتفرّعة من الأبوّة

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٥٨-٥٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨١.

التي تجمعهم معه بأبيهم يعقوب عليه السلام؛ فأخو يوسف ينتمي إلى أبيهم، فتكون الأبوّةُ المراد تأصيلها في الخطاب بين: يعقوب و(أبناؤه وأخو يوسف).

وكذلك يركّز يوسفُ عليه السلام في خطابه على إظهار أخيه في تلك الأبوّة أيضًا من خلال العلامة اللغويّة (أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ)؛ إذ الابن يستلزم وجودَ أبٍ. فالأبوّة بين: ابن وك (أب). فهو يُثبتُ أبوّةَ يعقوبَ لأخيه من خلال معنى الابن، ومن خلال أبوّة يعقوبَ لأخوة يوسف يُعيد أخاه إلى تلك الأبوّة.

وكذلك تستلزم أبوّةُ يعقوبَ لأخي يوسف الأخوّةَ بين أخيه وأبناء أبيه. فكان يوسفُ عليه السلام مراعيًا تلك العلاقةَ وجاعلًا أطرافَها في مقاماتهم الواقعيّة.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1].

يعمّمُ النَّص القرآني مفهومَ الأبوّة، فتتجاوز العلاقةَ النَّسَبيّةَ الماديّةَ حتى تشملَ المسلمين؛ ليكونوا طرفًا متضايفًا مع إبراهيم عليه السلام الذي يلتحق به المسلمون في إطار الأبوّة الدّينيّة الإسلاميّة؛ «وإنما سمّي

(١) سورة الحج، الآيتان: ٧٧-٧٨.

إبراهيم أبا المسلمين؛ لأنّه عليه السلام أول من أسلم للّه كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١]، وقال حاكيًا عنه عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ﴾[٢] فنسب اتّباعه إلى نفسه، وقال أيضًا: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[٣]، ومراده ببنيه المسلمون دون المشركين قطعًا»[٤].

٣ - الأخ وأخوه

إنَّ العلامةَ اللغويّةَ لهذين الطَّرفين واحدةٌ، ولكنَّ المعنى متضايفٌ، فمعنى الأخ الأول مغايرٌ لمعنى الأخ الثَّاني. وبينهما نسبةٌ إضافيّةٌ؛ فيدخل الاسمان في حقل الأسماء المتضايفة. «وفي كلام بعضهم في كلّ شيء يثبت بثبوته آخر، كالأب والابن، والأخ والصّديق، فإنَّ كلّ ذلك يقتضي وجوده وجود آخر، فيقال لهذه: الأسماء المتضايفة»[٥]. ويُطلق الأخ على كلّ واحدٍ من طرفي الأخوّة، وهذه العلاقةُ يمتدُّ إطارُها الدَّلالي، فينطبق على أطرافٍ كثيرةٍ؛ لوجود مشاركة في شيءٍ ما بين تلك الأطراف. فالأخ «هو المشاركُ آخرَ في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما أو من الرّضاع. ويستعار في كلّ مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدّين، أو في صنعة، أو في معاملة أو في مودّة، وغير ذلك من المناسبات»[٦]. فإنَّ الأخوّة مصدر ليس له فعل يقال: «أَخٌ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣١.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.
(٤) الميزان في تفسير القرآن: ١٤/ ٤١٢.
(٥) مفردات ألفاظ القرآن: ٥١٣.
(٦) نفسه: ٦٨.

بيّنُ الأُخُوّة، وأخت بيّنةُ الأخوّةِ»[١]. وفي النَّص القرآني تتخذُ معانيَ عامةً ومتنوّعةً تتمثّل بما يأتي:

أ ـ الأخوّة في النَّسب

هذه العلاقةُ مألوفةٌ بين أبناء ينتسبون إلى أب وأمّ أو إلى أحدهما. وقد وضع النَّص القرآني نظامًا عامًّا ينظمها في حياتهم. كقانون الميراث، فإنَّ الأخوّة لها رصيدٌ خاص ومنزلةٌ اجتماعيّةٌ مؤثرةٌ في توزيع الميراث كما في الآية الكريمة:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[٢]. وتتطلّب الأخوّةُ نظامًا دقيقًا في علاقة الزَّواج؛ فقد فرض اللّهُ تعالى أنْ تخرج من دائرة الزَّوجيّة، فلا يُسمح بإنشاء زواج بين الأخ وأخواته من أمه أو من الرَّضاعة. بل حُرمت تلك العلاقةُ بينه وبين بنات أخيه أو بنات أخواته: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ

(١) دقائق التصريف: ٧٤.

(٢) سورة النّساء، الآية: ١١.

ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[١].

ولعلَّ من لطيف الأخوّة وجميلها أنْ تظهر في أخوين في النَّسب متشابهينِ في المعرفة والمشاعر، ومتقاربينِ في المنازل العالية. ومشتركينِ في الرّسالة والهدف كما في أخوّة النَّبيينِ: موسى عليه السلام وهارون عليه السلام بصريح الخطاب القرآني لهما: ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[٢]. فاللغة القرآنيّة تفرّق بين الأخوينِ في الأمر: (اذهب أنت وأخوك) لتحديد المأمورينِ، فيظهر طرفا التَّضايف: أنت وأخوك. مع وجود التَّضايف في الإضافة النحويّة (أخوك). ثم توحّد اللغة بينهما في الخطاب (اذهبا)؛ لاتّحادهما في الغاية والمسؤوليّة والتبليغ.

ب. الأخوّة في الإنسانيّة

تظهر هذه النّسبةُ بينَ النَّبيين وأقوامهم في بعضِ الآيات:

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾[٣].

﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾[٤].

﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾[٥].

(١) سورة النّساء، الآية: ٢٣.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٤٢-٤٣.

(٣) سورة الشّعراء، الآيتان: ١٠٥-١٠٦.

(٤) سورة الشّعراء، الآيتان: ١٢٣-١٢٤.

(٥) سورة الشّعراء، الآيتان: ١٤١-١٤٢.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1].

فكلُّ نبي من المذكورينَ في الآيات يرتبط مع أفرادِ قومه بالأخوّة الانسانيّة العامّة التي يدخل تحت مفهومها كلُّ البشر حتى الأنبياء. فالنَّبي أخٌ لقومه، وهو أخٌ لكلّ فردٍ منهم. ويؤسّس كلُّ نبي خطابَه ومقاصدَه على أساسٍ فطري ثابتٍ يتقبّلُه الجميعُ من غير تعالٍ ولا تفريقٍ بين نبي وغير نبي على الرَّغم من اختلاف المنازل وافتراق الدَّرجات. إلا أنَّ أولئك الأقوامُ فرّطوا بتلك الأخوّة، وضيّعوا الرّسالة.

ت. الأخوّة في الدّين

يقوم هذا التَّضايفُ بين أطرفٍ تتشابه في المعتقد، وهو الإيمان باللّه تعالى. ومن الآيات التي بيّنتها ما يأتي:

- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[2].

- ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

- ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـَٔـِى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ

(١) سورة الشّعراء، الآيتان: ١٦٠-١٦١.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٠٢-١٠٣.

(٣) سورة التَّوبة، الآية: ١١.

قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(١).

- ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾(٢).
- ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣).

إنَّ المتَّأمّل في هذه الآيات يحصل على مُعطيات دلاليّة تتمثّل بالمعاني والتَّصورات الآتية:

١ ـ الإيمانُ أساسٌ فاعلٌ في تحويل تقابل التَّضايف بين العدو وعدوه ﴿ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾ إلى تقابل جديدٍ بين الأخ وأخيه ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾.

٢ ـ التَّوبة وإقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة أي الدّخول في الاسلام من شروط الأخوة الدّينيّة ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ ﴾.

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤-٥.
(٢) سورة الحجر، الآيات: ٤٥-٤٧.
(٣) سورة الحشر، الآيتان: ٩-١٠.

وهذا يعني أنّ كلَّ أخٍ في هذه العلاقةِ يتحلّى بالتّوبة، ويلتزم بإقامة الصّلاة وبأداء الزّكاة. وهذه هي جهات الشّبه العامة بين الإخوان في الدّين.

٣ ـ الأخوّةُ الدّينيّة متأصّلةٌ في ذوات أطرافها؛ لأنّها قائمةٌ على حقائق داخليّة نفسيّة متّحدة في جوهر النّفس الإنسانيّة ما يجعل المعنى فيها ثابتًا، فتبقى هذه الأخوّة راسخةً خالدةً بخلاف الأخوّة النّسَبيّة التي تظهر في البعد المادّي ما يجعلها قابلةً للزّوال إذا لم تُبنَ على أسسٍ نفسيّة أخرى كالمحبّة والاحترام وغيرهما.

ث. الأخوّة في الكفر

تنشأ بين الأطراف التي تتشابه في صفة الكفر بالحقائق الوجوديّة كالكفر بالخالق. ومن أفرادها التي تمثّل هذه الأخوّة ما ذكره القرآن في الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[1]. فكلُّ شخصٍ اتّصف بصفة التّبذير حاز على منزلةِ الأخ الذي يشبه أخاه الآخر. وهو شيطانٌ من الشّياطين. «وكأن وجه المؤاخاة بينهم أنّ الواحد منهم يصير ملازمًا لشيطانه وبالعكس كالأخوين اللذين هما شقيقان متلازمان في أصلهما الواحد... وقد ظهرت مما تقدم النكتة في جمع الشيطان أولًا وإفراده ثانيًا فإن الاعتبار أولًا بأن كل مبذر أخو شيطانه الخاص فالجميع إخوان للشياطين والاعتبار ثانيًا بإبليس الذي هو أبو الشياطين أو بجنس الشيطان»[2].

لذلك اتّحد المبذرُ والشّيطانُ في صفة الكفر؛ لأنَّ الملازم

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٣/ ٨٢.

للشَّيطان الكافر بربّه يشبهه بالكفر أيضًا. وههنا تظهر أخوّة بين كلّ فردٍ من المبذرين مع شيطانٍ ملازمٍ له. ولها صورةٌ أخرى، وهي الأخوّةُ العامةُ التي يتقابل فيها: المبذرون كلّهم مع الشَّياطين كلّهم. والجميعُ يتشابهون في معنى نفسي من الكفر والمكر والتَّبذير وغيرها ممّا يُعدُّ من أخطر الصّفات التي يتحوّل بها الإنسانُ إلى أخٍ شيطاني ووجودٍ متمرّدٍ بعيدٍ عن التَّعقل والفهم الصَّحيح.

وينسلخ عن إنسانيّته، ويدخل في زمرة الشَّياطين، ثم يخسر مصيرَه وحياتَه الأبديّة. ويسري مفهومُ الأخوّة بين المنافقين والكافرين في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1].

هذه الآيةُ تُبيّن هذين الطَّرفين اللَّذينِ يشكّلان الأخوّةَ المبنيّةَ على أساسِ الكفر؛ لأنَّ المنافقَ يُضمرُ الكفرَ، ويدّعي الإيمانَ ظاهرًا. والكافرُ يُعلن كفرَه صراحًا، فالكفرُ شبهٌ بينهما يجمعهما في وحدةٍ من الأخوّة تبقى خالدةً؛ لاتّحاد الكفر في نفوسهم.

٤ - الصَّاحب وصَّاحبه

تظهر دلالةٌ اجتماعيّةٌ بين طرفين يُطلق على كلّ واحدٍ منهما صفةُ صاحب؛ لوجود علاقة بينهما والمادة اللغويّة تشيرُ إلى ذلك. «الصاد والحاء والباء أصلٌ واحد يدلُّ على مقارنَة شيء ومقاربته. من ذلك

(١) سورة الحشر، الآية: ١١.

الصَّاحب»[١]. وأبان النَّص القرآني هذا المفهومَ العام الذي انطبق على عددٍ من الأفراد في آيات قرآنيّة من أبرزهم:

أ. الرَّسول محمد ﷺ وقومه الذي له صحبةٌ طيّبةٌ معهم أشارت إليها بعضُ الآيات:

- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٢].
- ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٣].
- ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[٤].

إنَّ تلك الصّحبةَ بين الرَّسول ﷺ وقومه كانت شاهدةً على سلامة الرَّسول من الجنون والضَّلال والغواية التي كانت تُنسب إليه على الرَّغم من حضوره معهم ووجوده بينهم؛ فمن المعلوم أنّ الصَّاحبَ يعلمُ صاحبَه؛ لأنّه ملازمُه ومراقبُه في مدة طويلة قضياها معًا. فالنَّص القرآني يوظّف معنى الصَّاحب؛ للاستدلال على سلامةِ الرَّسول النَّفسيّة واستقامته الأخلاقيّة التي تجعله مستعدًّا لنيل مقام النّبوّة، وتحمّل أعباء الرّسالة.

ب. النّبي عيسى عليه السلام والعبد الصالح عليه السلام بينهما خطاب في وقائع فيها عِلْم مخفي سأل موسى عنه أكثر من مرةٍ حتى خاطبه العبد؛

(١) معجم مقاييس اللغة: ٣/ ٣٣٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٤.
(٣) سورة النجم، الآيات: ١-٤.
(٤) سورة التكوير، الآية: ٢٢.

إذ (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)[الكهف:٧٦]. ليُبيّن له دائرةَ الصَّحابة التي تفرضها الرّتبةُ العلميّةُ التي شهدها، وتحلّى بها العبدُ بما لها من شروط نفسيّة لا تقبل السّؤالَ في مقامات العلم الخفي، وتتطّلب الصَّبرَ والانتظارَ.

ت. بعض الأفراد والأقوام، كأصحاب الجنّة في الأرض، ويبيّن النَّص القرآني في أحد مقاطعه الحوارَ بين رجلين، ويُطلق كلمةَ «صاحب» على كلّ واحدٍ منهما؛ لاقترابهما في المكان وإنْ بدا اختلافُهما في الرّؤية العقديّة والأخلاقيّة، فأحدهما مغترٌّ بماله وجنته ظالمٌ لنفسه. والآخر معتدلٌ ينصح صاحبَه: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[1].

وشمل مفهومُ الصَّاحب آخرينَ كأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ، وأَصْحَابُ مُوسَى، وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وأَصْحَابَ الْكَهْفِ وأَصْحَابِ الْفِيلِ وغيرهم ممّن ذكرته الآيات الآتية:

- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].
- ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3].

(١) سورة الكهف، الآيات: ٣٤-٣٨.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٠.

(٣) سورة الشّعراء، الآية: ١٧٦.

- ﴿ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾[١].
- ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾[٢].
- ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٣].

يمكن أنَّ نتصوّر الصّحبةَ بين هؤلاء الأقوام والأشياء التي صحبوها كالأيكة، أو الحجر، أو مدين، أو السَّفينة، أو الكهف أو الفيل؛ للملازمة بينها «والصاحب للشيء: الملازم له، وكذا الصحبة للشيء هي الملازمة له إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا»[٤]؛ فتكون الإضافةُ النحويّةُ إضافةً تعريفيّةً. وتدلّ على وجود طرفين للتَّضايف بين صاحبين: أصحاب والأيكة.

وأصحاب والحجر. وأصحاب ومدين. وأصحاب والسَّفينة. وأصحاب والكهف. وأصحاب والفيل. أو يكون التَّصوّرُ الإضافي بجعل المضاف إليه الدّال على الأشياء المقابلة للأصحاب مكانًا لها؛ فتحمل الإضافةُ النحويةُ معنى الظرفيّة المكانيّة في الأماكن. أو الملكيّة كالفيل أو السَّفينة... فلا توجد علاقةُ الصَّحبة حينئذٍ بينهم وبين تلك الأشياء، وتكون الصَّحبةُ فيما بينهم، فكلّ واحد منهم صاحبٌ غيرَه أو مجموعةٌ منهم صاحبةٌ أخرى... وصحبتُهم واقعةٌ في ذلك المكان، أو صحبتُهم في ملكيتهم لذلك الشيء المملوك. فكلُّ قومٍ من الأقوام المذكورة بينهم صحبةٌ في الفكر والهدف، أو

(١) سورة الحج، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الشّعراء، الآية: ٦١.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ١٥.
(٤) مجمع البحرين - الطريحي: ٢/ ٣٥٦.

في امتلاكهم لشيء، أوفي مكان تواصلهم واستقرارهم.

ث. الزَّوجة

أطلق القرآنُ على الزَّوجة كلمةَ «صاحبة» عندما نفى وجودَ زوجةٍ للّه تعالى، وكذلك في حالة فرار الإنسان من أقرب النَّاس منه في عالم الحساب، ومنهم صاحبتُه التي هي زوجتُه التي كانت مصاحبةً له في الدّنيا:

- ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾(١).
- ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾(٢).

ج. أصحاب النّار

ذكرت مجموعةٌ من الآيات تقابلَ مجموعةٍ من النّاس مع النَّار في إطار مفهوم الصّحبة البادي من سطح النَّص، كالآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾(٣).

ولكنَّ آياتٍ أُخرَ حملت قرينةً دالةً على تصوّر النَّار ظرفًا لاجتماع الأصحاب فيها. والقرينةُ اللفظيّةُ هي حرف الجرّ (في) الدّال على الظرفيّة في الآيات الآتية:

- ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٤).

(١) سورة الجنّ، الآية: ٣.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٤-٣٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٩.

- ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

لذلك يترشَّح معنى الصّحبة فيما بينهم. فهم مقاربٌ بعضُهم بعضًا في الفكر والشّعور ومقارنٌ بعضُهم بعضًا في المكان والمثوى. وتلك الصحبةُ تبقى خالدةً؛ لامتزاج أطرافها واتّحادهم في المحتوى الدّاخلي النّفسي من صفات الكذب بالحقائق والكفر بالواقعيّة.

ويطلقُ القرآنُ اسمَ «أصحاب» على موجودات غير محسوسة من ملائكة العذاب الذين يسيطرون على النّار وعلى مَنْ استحقَّ الدّخول فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ﴾[2]. ولعلَّ الصّحبة ههنا بين ملائكة العذاب والنّار؛ إذ لهم ولاية عليها من اللّه تعالى. و«المراد بأصحاب النار خزنتها الموكلون عليها المتولون لتعذيب المجرمين فيها»[3].

ح. أصحاب الجنّة

تظهر صحبةٌ مقابلةٌ لصحبة مَنْ في النّار تتمثّل بأصحاب الجنّة في العالم الآخر في مجموعة من الآيات منها:

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[4].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٨٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٢.

- ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١).
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٢).
- ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾(٣).

هذه الصّحبةُ ناشئةٌ من وجود تقارب نفسي في صفة الإيمان واتّحاد في الممارسة العمليّة الصَّالحة، فيجمعُ هؤلاء الأصحابَ جمالُ الأنفس وجمالُ الأعمال الذي هيَّأ لهم الجنَّةَ والالتذاذَ بنعيمها والخلودَ فيها.

٥ - القرين وقرينه

يقترب القرينُ من قرينه في معنى الجمع؛ إذ «القاف والراء والنون أصلان... أحدُهما يدلُّ على جمع شيء إلى شيء»(٤). وهما يجتمعان معًا في شيءٍ ما؛ لأنَّ «الاقتران كالازْدواج في كونه اجتماع شيئينِ، أو أشياء في معنًى من المعاني... قرنتُ البعير بالبعير: جمعتُ بينهما)(٥).

وذُكر القرينُ من النَّاس مرةً واحدةً في الآية المباركة: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

(١) سورة يونس، الآية: ٢٦.
(٢) سورة هود، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٤.
(٤) معجم مقاييس اللغة: ٥/ ٧٦.
(٥) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٦٧.

وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[1].

وهذا الاستعمالُ في خطابٍ تداولي في العالم الآخر، يظهر فيه الطَّرفُ الأولُ باسمٍ نكرةٍ «قائل» وكذلك الطَّرف الثَّاني باسمٍ نكرةٍ «قَرِينٌ» وعلاقةُ الاقتران بينهما كانت في الدُّنيا بحسب مضمون القرين الآخر. «قال قائل من أهل الجنة المتسائلين إني كان لي في الدنيا مصاحب يختص بي من الناس»[2]، لكنَّ تلك المقارنةَ والمصاحبةَ تنتهي في الآخرة، فيتفرّق النَّاسُ على أساسِ الإيمان والكفر، ويدخلون الجنّةَ أو النَّارَ.

أما الآياتُ الأُخَرُ فصوّرت الاقترانَ بين بعض النَّاس والشَّياطين، وأطلقت اسمَ القرين على الشَّيطان الذي يقارن بعضَ النَّاس في الآيات الآتية:

- ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾[3].
- ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾[4].

(١) سورة الصَّافات، الآيات: ٥١-٥٥.
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ١٣٨.
(٣) سورة النّساء، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الزخرف، الآيات: ٣٦-٣٨.

- ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾[1].
- ﴿ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾[2].

ومن التَّصوّرات التي قدّمتها الآياتُ ما يأتي:

١ ـ يقترن الشَّيطانُ ببعض البشر، فيكون بينهما اقترانٌ مذمومٌ.

٢ ـ هناك قرينٌ من الشَّياطين لبعض البشر في الحياة الدّنيا، فتوجد علاقةٌ غيرُ محسوسة تجمعهما معًا.

٣ ـ هناك مجموعةٌ من القرناء تجتمع مع مجموعةٍ أخرى من النَّاس.

٤ ـ الاجتماعُ بين القرناء سببُه الرّياءُ وغيابُ الرّؤية الواضحة والكفرُ ومنعُ الخير والاعتداءُ.

٥ ـ تتدخل اليدُ الإلهيّة في تقريبِ القرين الشَّيطاني من البشر؛ بسبب ميلهم نحو الضَّلال والكفر والطغيان.

٦ ـ جميعُ أشكال الاقتران وأنواع القرين تتضمّن بعدًا نفسيًّا سلبيًّا، وربما لم يُطلق القرآن على مَنْ اقترن به القرينُ البشري اسمَ «قرين»؛

(١) سورة ق، الآيات: ٢٣-٢٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

لدفع الجنبة السَّلبيّة عنه. واتّصافه بصفات الكمال التي جعلته من الفائزين في العالم الآخر.

٧ ـ علاقةُ الاقتران تنتهي في النشأة الأخرى؛ لأنَّها عالم التفريق بين الصَّالحين والأشرار.

٦ - الظالم والمظلوم

يعدُّ الظلمُ من الصّفات السَّيئة التي حذّر منها النصّ القرآني في كثير من آياته. وهو يقومُ بين طرفين؛ لأنَّ أصله «وَضْع الشَّيء غيرَ موضعه تعدِّيًا»[١]. وهما الواضع المتعدّي والشيء الموضوع في غير مكانه. ويأخذ الظّلمُ في القرآن معانيَ تتحقّق في أشخاص منهم:

أ. الأفراد الذين لا يستحقّون الإمامةَ أو الخلافةَ الإلهيّة التي هي جَعْلٌ إلهي تكويني كإمامة إبراهيم عليه السلام التي لم يجعلْها اللّهُ تعالى لبعض ذريته الظالمين والمشار إليها في الآية:

- ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢]. ومن لطيف الخطاب القرآني أنَّه جعل العهدَ موجودًا حيًّا نفى عنه أنْ ينالَ الظالمين؛ للبعد بينه وبين الظالمين. «وفي التعبير إشارة إلى غاية بعد الظالمين عن ساحة العهد الإلهي، فهي من الاستعارة بالكناية»[٣].

(١) معجم مقاييس اللغة: ٣/ ٤٦٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١ / ٢٧٦.

ب. كلُّ فرد اتَّصف بالكفر اتَّحدت نفسُه بصفة الظلم، فقد عُرّف الكافرُ بالظالم في الآية:

- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[1].

يظهر من سياق الإنفاقِ المأمورِ به في الآية أنَّ الكفرَ الذي اتَّصف به هؤلاء يتمثّل بترك الإنفاق الواجب، فإذا تحقّق الكفرُ به وقع الظلمُ، وتجلّت في الكافرين بالإنفاق صفةُ الظالمين. وههنا يتشعَّب أطرافُ الظلم، وتكثر مظاهرُه.

فتنشأ إضافاتٌ معنويّةٌ بين الظالمين وأنفسهم؛ فهم ظالمون أنفسَهم ومظلومون في بنية التَّضايف النَّفسي. وبينهم وبين أفراد المجتمع المستحقين للإنفاق، فهم الظالمون وغيرهم مظلومون؛ فلم يعطوهم ذلك الحقّ؛ لـ «إنَّ الكافرين يظلمون أنفسهم، فبتركهم الإنفاق الواجب... حرموا أنفسهم من أعظم السعادات... ثانيًا: يظلم الكافرون أفراد مجتمعهم أيضًا، لأنّ الكفر منبع القسوة وتحجّر القلب والتمسّك بالمادة وعبادة الدنيا، وهذه كلّها من مصادر الظلم»[2].

ت. كلُّ فرد كذب على اللّه تعالى وافترى عليه سبحانه

﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٢) الأمثل في كتاب اللّه المنزّل - ناصر مكارم الشيرازي: ٢/ ١٦٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٤.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[1].

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾[2].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[3].

يصل الظلمُ عليا درجاته عند هؤلاء بافترائهم على اللّه سبحانه، وكذبهم عليه. ولعلَّ اسمَ التفضيل (أظلم) يدلُّ على تلك المرتبة من المفهوم، فإذا فعلوا ذلك تحقّق الظلمُ في أنفسهم. والظلمُ لا يصل إلى اللّهِ تعالى؛ لعلوّ اقتداره، ومنعةِ عزّته.

وإنَّما تظهر آثارُه في أنفسهم، فالتَّضايفُ يتركّب من متقابلين: الظالمين وأنفسهم. ويكون في صورةٍ أخرى من متضايفين: الظالمين وبعض النَّاس. «فإنّ عليهم أن يعرفوا بأن كلّ من افترى على اللّه الكذب استحق وصف الظلم؛ لأنه بهذا الافتراء ظلم نفسه بتعريضها للعذاب الإلهي، وظلم غيره بتحريفه وإضلاله بما افترى»[4].

ث. كلُّ فرد أعرض عن آيات اللّه تعالى أو لم يحكم بها

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢١.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الصف، الآية: ٧.
(٤) الأمثل في كتاب اللّه المنزّل: ٢/ ٤٠٠.

- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾[١].
- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[٢].
- ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[٣].

إنَّ الظالمين من المعرضين عن آيات اللّه تعالى، وممّن لم يحكم بأحكام الشَّريعة يُوجدون مع أنفسهم علاقةَ الظلم. فكلُّ واحدٍ منهم يجعل نفسَه تنال الصّفتين: الظالم والمظلوم؛ فيكون معنى التَّضايفِ ذاتيًّا داخليًّا في شيءٍ واحدٍ من جهتين، وهذا النَّحو من الفعل وأثره في الإنسان فعل انعكاسي، يرتدُّ فعلُ الفاعل إلى نفسه. والذي يظنُّ أنّه ينتفع به، ويلحق الضَّرر بغيره. وإنّما المتضرّر الفاعل نفسه؛ لأنّه يكتسب بفعله العقابَ، و«يكون ظالمًا لنفسه بارتكاب المعصية الموجبة للعقاب»[٤].

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٧.

(٢) سورة السَّجدة، الآية: ٢٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٤) التبيان في تفسير القرآن – الطوسي: ٣/ ٤٩٦. كذا بيّن الطوسي أنَّ من أعرض عن الآيات ظالم لنفسه «من أظلم لنفسه ممَّن نبّه على أدلته وعرَّفه الرسل إيّاها (فأعرض) جانبًا» نفسه: ٧/ ٥٢.

ج. مَنْ يدعو غيرَ اللّه ويشرك به سبحانه

- ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).
- ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

يظهر المعنى الإضافي عندما يتحقّق الشّركُ باللّه من هؤلاء، فيتَّصفون بالظالمين، ويقابله في الطَّرف الثّاني: أنفسهم والمجتمع المظلومون. فإنَّ الشّركَ باللّه يؤسّس لانتشار الظلم الكبير الذي يتجلّى بين المشرك ونفسه؛ لأنَّه أخرجها من الوعي والفهم الدّقيق للعالم. وبينه وبين مجتمعه بتضليلهم وتحويل فطرهم الصَّافية إلى ذوات جاهلةٍ مستسلمةٍ للخرافة والأوهام، وتجهيل العقول عن طريق عبادة الأحجار والأخشاب(٣).

ح. مَن اتخذ غير المؤمنين أولياء

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٤).
- ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٥).

(١) سورة يونس، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥١.
(٣) ينظر: الأمثل في كتاب اللّه المنزّل: ٢/ ٤٨٧.
(٤) سورة التَّوبة، الآية: ٢٣.
(٥) سورة الممتحنة، الآية: ٩.

- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

ينتشر فهمُ معنى الظلم بين أطرافه بتعدّدهم، فإنَّ الفردَ الذي يتَّخذ وليًا من المستحبّين للكفر، ومن المقاتلين للمسلمين... ومن اليهود والنَّصارى المعتدين يكون من الظالمين لنفسه ولمجتمعه ولنبيّه بفعله ذلك[2]. فمن خلال الولاية لهؤلاء ينفتح بابُ الظلم، ويدخل في عالمِ الظلم مجموعةٌ: الظالم نفسه في مقابل ذاته ومجتمعه ونبيّه الذي دعاه إلى التَّفكير والمنطق والإيمان، ونبذ الشّرك والكفر والضَّلال.

خ. كلُّ فرد معتدّ أو جماعة معتدية على الآخرين كما في الآيات الآتية:

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[3].
- ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].
- ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) ينظر: الأمثل في كتاب اللّه المنزّل: ٥/ ٣٩٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٤٤.

(٤) سورة المائدة، الآيات: ٢٧-٢٩.

بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

- ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾[2].

- ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

- ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾[4].

ينفي النَّص القرآني وجودَ علاقة ظلمٍ بين اللّه سبحانه ومخلوقاته؛ لأنَّه اتَّصف بالعدلِ الذي لا يظلم. وتظهر هذه العلاقةُ بين النَّاس، فهم بين ظالم لنفسه أو لغيره ومظلوم؛ لذلك تنوّع الأفرادُ من الظالمين في الآيات القرآنية، فهم يتمثّلون بالأطراف الآتية:

أ. النَّاس كلّهم يقع بينهم الظلم في هذه الدّنيا. ما يعني أنّ هذه العلاقةَ السَّيئةَ منتشرةٌ بينهم، فأيُّ فردٍ منهم هو عنصرٌ داخلٌ في ظلمٍ مع غيره أو مع ذاته حتى العادلين منهم كالأنبياء يكونون أفرادًا من المظلومين.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.
(٢) سورة الشّعراء، الآيتان: ١٠-١١.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٧٥.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٧.

ب. قابيل الذي قتل أخاه هابيل من غير حقّ، فبقتله وجريمته اتَّصف بالظلم لنفسه؛ لأنّه أخرجها من الصَّفات الفاضلة من العطف والرّحمة، وأدخلها في صفات الأشرار من القسوة والوحشيّة، وأدخلها عذابَ النَّار. وظلمه لأخيه بحرمانه من حياته.

ت. قوم موسى عليه السلام الذين اتَّصفوا بأنواع الظلم، فوصفُ الظالمين ذو معنى عام ينطبق على كلّ متعدٍّ منهم على الآخرين كأنبيائهم، واستعباد بني إسرائيل، وتعذيبهم. فههنا العلاقةُ بينهم ظالمين وغيرهم تتَّسع مجالاتُها بإلحاق أنواعِ الظلم بالمظلومين.

ث. السَّارق الذي سرق صواعَ ملكِ مصر، وهو أخو يوسف عليه السلام عندما جعل الصّواعُ في رحل أخيه. فمن سرق يعدُّ ظالمًا في عرف أولئك القوم. والظالمون هم السَّارقون؛ فالسَّرقةُ ظلمٌ يقوم به السَّارقُ يوصله إلى المسروق المظلوم بأخذه ماله... ويجازى بالسَّرقة السَّارق نفسه عند تحقّقها. فيملك المسروقُ السَّارقَ، ويتصرّفُ به[1].

ج. الشّخص الضّال عن الاسلام يسميّه القرآن ظالمًا. وقد عرّف بأل الجنسيّة، فيكون مفهومه عامًّا؛ إذ «المراد بالظالم جنسه وهو كلّ من لم يهتدِ بهدى الرّسول، وكذا المراد بالرسول جنسه وإنْ انطبق الظالم بحسب المورد على ظالمي هذه الأمة والرسول على محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[2].

ح. مَنْ اعتدى على الآلهة في عرف الوثنيين:

- ﴿ قَالُوٓاْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١١/ ٢٢٥.

(٢) نفسه: ١٥/ ٢٠٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٩.

وهذا المعنى يلازمُه في اعتبار القوم وليس في الواقع وجودُ ظالم وهو إبراهيم عليه السلام ووجود مظلومين وهم الآلهة وعبدتها وإبراهيم نفسه، فهذا الاستفهام منهم يتضمن حكمًا بوصفِ الفاعل ظالمًا. فهو «قضاءٌ منهم بكونه ظالمًا... إذ قد ظلم الآلهة بالتعدي إلى حقّهم وهو التعظيم وظلم الناس بالتعدي إلى حقّهم وهو احترام آلهتهم وتقديس مقدساتهم وظلم نفسه بالتعدي إلى ما ليس له بحق وارتكاب ما لم يكن له أن يرتكبه»[1].

خ. بعض الأنبياء في الآيات الكريمة:

- ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[2].
- ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٤/ ٣٠٠.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٩-٢٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

الظالمان في هذين النّصين هما النَّبيان: آدم عليه السلام ويونس عليه السلام فأمّا آدم فقد اعترف مع زوجته حواء بالظلم. وعلاقة الظلم هذه تتشكّل من طرفين: (آدم وحواء) وأنفسهما. فهما ارتكبا مخالفةً للنهي الإلهي ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ وإنْ لم يكن ذلك ذنبًا ومعصيةً إلا أنّه يُلحق الظلم بالنَّفس، ويؤخّر حركتَها نحو الكمال الإنساني، ويستلزم الإنزالَ من المكانة السّامية[١]. وأمَّا يونسُ فقد فارق قومَه عندما لم يؤمنوا. وابتلاه ربُّه عندما ابتلعه الحوتُ، فاعترف بالظلم بسبب فراقه قومه.

وتُوحي نسبةُ يونس عليه السلام نفسَه إلى الظالمين بوجودِ علاقةٍ بينه وبين مَنْ ظلمهم. وهما نفسُه وقومُه؛ «فقد ظلمت نفسي، وظلمت قومي، فقد كان ينبغي أن أتقبّل وأتحمّل أكثر من هذ الشدائد والمصائب، وأواجه جميع أنواع التعذيب والآلام منهم فلعلهم يهتدون»[٢].

٧ - العدو وعدوه

تتألّف العداوةُ من طرفين كلُّ واحدٍ منها يطلقُ عليه عدوّ. والعدو على وزن فَعُول وجمعه أعداء[٣]. وكثُرت نماذجُ العداوة في النَّص القرآني، وهي تتمثّل بموجوداتٍ حيّةٍ تقوم بينها علاقةٌ سلبيّةٌ فيما يأتي:

(١) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب اللّه المنزّل: ١٠/ ١٦٠.
(٢) نفسه: ١٠/ ١٦٠.
(٣) ينظر: دقائق التصريف: ٨٨.

أ. عداوة الشَّيطان للإنسان أشارت إليها آياتٌ متعدّدةٌ منها:

- ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[١].
- ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[٢].
- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[٣].
- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[٤].

هذه العلاقةُ حقيقيّةٌ تنشأ من الشَّيطان وآدم وحواء عليهما السلام بسبب اختلاف صفات الطرفين: الصّفات الشَّيطانيّة كالكفر والمكر، والصّفات الإنسانيّة كالإيمان والرّحمة. «وهذه العداوة تكوينيّة اقتضائية، حاصلة من التنافي والتباين بين الأنـواع المختلفة، والصفات المتغايرة»[٥]. ولا يشكّلُ وصفُ آدمَ بالعدوّ مثلبةً ونقصًا في ذاته وصفاته؛ لأنَّ هذا الوصفَ يحمل المعنى الإيجابي في

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٣٥-٣٦.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.
(٥) مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن - عبد الأعلى السبزواري: ١/ ٢٥٣.

مقابل العدوّ الآخر الذي يتَّصف بالمعنى السَّلبي الدّال على النقص والانحطاط. كقيامه بإزلال آدم وحواء، وإخراجهما من الجنَّة وغير ذلك من خطواته. فإنَّ «عداوة آدم له إيمان وحكمة، للخلاص من شرّه. وعداوة إبليس كفر وحيلة»[١].

ب. عداوة بعض النّاس والشَّياطين للأنبياء

تُعطي الآياتُ التي ذكرت العلاقةَ أكثرَ من أنموذج للعداوة بين الأنبياء عليهم السلام وغيرهم، وهي:

١ ـ عداوة عامة من بعض النّاس والشَّياطين للأنبياء جميعًا.

ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[٢].

فكلُّ نبي له أعداءٌ؛ لاختلاف الوظيفة بين الطَّرفين؛ فالأنبياء يرشدون النَّاسَ بالوحي، وأعداؤُهم يُوحي بعضُهم إلى بعض كلامًا باطلًا يُضلّون به بإذن اللّه تعالى؛ ليتحقّق اختبار الجميع، وامتحانهم من غير جبر[٣].

لذلك تجدُ في كلّ زمان ومكان في عصور الأنبياء عليهم السلام العداوةَ بارزةً بين المتعادين بين أصحاب الحقّ وأصحاب الباطل ﴿ وَكَذَٰلِكَ

(١) تفسير القرآن الكريم ـ صدر الدين الشيرازي: ٣/ ١٢٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٣٢١ـ٣٢٢.

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾[١].

- ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢].

تظهر في هذه الآية عداوةٌ شاسعةٌ المعنى تأتلف من أطراف كثيرة: اليهود و(اللّه تعالى والملائكة والرسل)فهم يحملون عداوةً تشمل تلك الموجودات العظيمةَ حتى اللّه تعالى. فاليهودُ لهم عداوةٌ ظاهرةٌ مع جبرائيل؛ لإنزاله القرآن الكريم وما فيه من أوامر إلهيّة. فالعداوةُ الأصليّةُ بين طرفين: العدو السَّلبي (اليهود) والعدو الإيجابي (جبرائيل). وهي نفسُها عداوةٌ للّه ولجميع ملائكته ورسله؛ لأنَّ «الأوامر الإلهيّة الباعثة على تكامل الإنسان، تنزل عن طريق الملائكة على الرسل، وإن كان بين مهمات الملائكة اختلاف، فذلك يعود إلى تقسيم المسؤوليات لا إلى التناقض بين المهمات، واتخاذ موقف معاد من أحدهم هو عداء للّه تعالى»[٣].

٢ ـ عداوة بعض النَّاس لبعض الأنبياء كما في الآيات الآتية:

- ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[٤].

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٩٧-٩٨.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب اللّه المنزّل: ١/ ٢٢٣.

(٤) سورة طه، الآيتان: ٣٨-٣٩.

- ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾(١).

- ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾(٢).

وتظهر عداوةٌ خاصةٌ بين عددٍ من النّاس وأحد الأنبياء. كعداوة فرعون وآله لموسى عليه السلام؛ لأنَّه كان يقتل الأطفالَ، فالعداوةُ ههنا ناشئةٌ من علاقة تضايف مضمرةٍ بين فرعون القاتل والأطفال الذين كان يُقتّلهم. وموسى عليه السلام ألقته أمُّه في اليم «وهو النيل... يأخذه عدو لي وعدو له وهو فرعون لأنه كان يعادي اللّه بدعوى الالوهية ويعادي موسى بقتله الأطفال وكان طفلًا» (٣). وعداوة الرَّجل في المدينة لموسى التي قامت على البعد المعرفي النَّفسي الدّيني المختلف بين بني إسرائيل والقبط في مصر ؛لـ «أن أحدهما كان إسرائيليًّا من متَّبعيه في دينه... والآخر قبطيًا عدوًا له لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل»(٤).

٣ ـ عداوة بعض النّاس للمؤمنين

تحدّثت عنها بعضُ الآيات في خطابٍ موجَّهٍ إلى المؤمنين نبّههم

(١) سورة القصص، الآية: ٨.
(٢) سورة القصص، الآية: ١٥.
(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٤/ ١٥٠.
(٤) ينظر: نفسه: ١٦/ ١٧.

إلى هذه العلاقة التي قد يختفي بعضُ أطرافها عن الفهم السَّطحي، ومن تلك الخطابات ما يأتي:

- ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[1].
- ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[2].
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[3].
- ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾[4].
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

يصف النَّص القرآني بالعدوّ عددًا من النَّاس في مقابل المؤمنين،

(١) سورة النّساء، الآية: ١٠١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١.
(٤) سورة الصف، الآية: ١٤.
(٥) سورة التَّغابن، الآية: ١٤.

ما يُشيرُ إلى وجود عداوةٍ حقيقيةٍ بينهما. وهي العداوةُ التي تعدُّ من المفاهيم القائمة بين طرفين وجودُ أحدهما يستلزم الآخرَ.

ويبدو من اتّصاف الطرفين أحدهما بالكفر والثّاني بالإيمان المتضادينِ أنَّ أساسَ العداوة الذي نشأت عليه هو المعنى المتقابل بين العدوينِ؛ فالبعدُ الفكري والنَّفسي بينهم متناقضٌ تمامًا: الكافرون والمؤمنون. فلما اتَّحد وجودُ كلّ طرفٍ منهما بالصّفة النَّقيضة للأخرى انفصل أحدُهما عن الآخر. وتباعد أحدُهما عن الآخر.

فتولّد التَّضايفُ في المعنى. فتلك العلاقةُ المتنافرةُ، وذلك التَّمايزُ والتَّناقضُ أوجد علاقةَ التَّلازم، وضرورةَ الحضور والتَّصوّر للطرفين. وقد كانت علاقةُ التَّضاد تستحضر مفهومينِ متضادينِ: الكافر والمؤمن. في حين أنَّ علاقةَ التَّضايف تستوجب مفهومين متضايفين: عدوّ وعدوّه.

٤ ـ عداوة النّاس بعضهم لبعض كما في الآيتين:

- ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ ﴾[١].
- ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[٢].

تتجلّى العداوةُ في الأولى بين: بني إسرائيل و(فرعون وجنوده) التي تفاقمت إلى حدّ قتلِ الأبناء واستحياءِ النّساء. وفي الثّانية تظهر العداوةُ الحقيقيّةُ في العالم الآخر التي كانت مجهولةً في الدّنيا. ويُفهم من المستثنى من العداوة (المتّقين) أنَّ تلك العداوةَ بين: الخليل وخليله مؤسَّسةٌ على عدم وجود التَّقوى عند الأخلاء «والوجه في

(١) سورة طه، الآية: ٨٠.

(٢) سورة الزّخرف، الآية: ٦٧.

عداوة الأخلاء غير المتقين أن من لوازم المخالّة إعانة أحد الخليلين الآخر في مهام أموره فإذا كانت لغير وجه اللّه كان فيها الإعانة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد»[١]، ولو كان الأخلاء متَّقين لما صار بعضُهم عدوًّا للآخر.

٨ - القاتل والمقتول

انتظم الفعلُ من مادة «ق ت ل» في النَّص القرآني، ولم يستعمل الاسم القاتل أو المقتول منه. فيُحيل الفعل على مفهوم يشترك في إنتاجه طرفان: قاتل ومقتول. ويشمل القتلُ مجموعةً من الموجودات التي لديها القدرةُ على القيام بهذا الفعل وإيقاعه في الخارج، وهم:

أ. قتل قابيل لأخيه هابيل

- ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٢].
تشير الآية إلى أنَّ للنَّفس فاعليّةً كبيرةً في إنجاز القتل حتى يصل دافعُه إلى قتل الأخ. فهذه العلاقةُ الطارئةُ بين القاتل والمقتول حطّمت العلاقةَ الحميمةَ أي الأخوّة بين الأخ وأخيه؛ لذلك استحقّ القاتلُ صفةَ الخاسر نتيجة عمله السَّيء. ما ولّد علاقةً جديدةً في الوجود البشري الأول. وظلَّت تتوالد، وتتكاثر هذه العلاقةُ بين بني آدم في جميع عصورهم، وستظهر تجلياتُها في نماذج من البشر يمثّلون أطرفًا متقابلةً عند حدوث أنواع من أفعال القتل.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٨/ ١٢٠.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٠.

ب. قتل بعض الأنبياء للآخرين

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[١].

وهذا القتلُ جرى بين داود النَّبي عليه السلام وبين جالوت الملك الظالم. ويمثّلُ علاقةً منتجةً مزيدًا من الخير والبركة وزيادة المُلْك... إذ يعدُّ الطرفُ المقابلُ للنَّبي مظهرًا للشّر في الوجود يجب اقتلاعُ جذوره، ودفعُ فساده حتى تثمر شجرةُ السَّلام بوجود النَّبي القاتل العادل الذي يُوصل النّاسَ إلى سعادتهم إنْ هم أطاعوه. فصفةُ القاتل تعدُّ من كمالات الإنسان التي تُظهر قوتَه وعزَّتَه في بناء دولة كريمة.

ت. قتل العبد الصالح للغلام

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾[٢]. يبدو من خطاب موسى عليه السلام للعبد العالم أنّ القتلَ من غيرِ حقٍّ أمرٌ فظيعٌ أفظعُ من خرقِه للسَّفينة في رؤية النّاس[٣].

في حين أنَّ ذلك القتلَ قام به عبدٌ صالحُ النَّفس، وصلاحُ النَّفس يستتبعُه صلاحُ الفعل؛ لوجود تماثلٍ بين الذَّات الصالحة وفعلها. لذلك جاء تَّأويلُ قتلِ الغلام من لدن العبد نفسه بأنَّه عملٌ صالح يُعطي نتائجَ طيّبةً تحقّق سعادةَ والدي الغلامِ، وتضمن سلامتَهما النَّفسيّةَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٤.

(٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٣/ ٣٤٥.

وفوزَهما في الآخرة بإزالة الآثار السَّيئة لهذا الغلام الذي إنْ بقي معهما سوف يحملهما على الطّغيان والكفر. فقد تُنتج علاقةُ الأبوّة المؤثرة بينه وبينهما علاقةَ تماثُلٍ بالكفر والطغيان.

ث. قتل بني إسرائيل للأنبياء أو غيرهم

- ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[1].

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2].

إنَّ بنية التَّضايف في هذه النصوص تمتاز بما يأتي:

١ ـ عبر عن التَّضايف بالفعل الماضي في واقعةِ قتلِ نفسٍ واحدةٍ، ونسب القتلُ إلى الجميع ما يجعل العلاقةَ يتّسع مداها حتى ينالوا كلُّهم صفةَ القاتل المذمومةَ في مقابل فرد واحد منهم مقتول.

٢ ـ أسهم الفعل المضارع المجرَّد بالدَّلالة على القتل الكثير الذي مارسه بنو إسرائيل ضد الأنبياء والرّسل (يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ) ما خلق للقتل تصوّرًا سلبيًّا يتلازمُ فيه بنو إسرائيل وكثير من الأنبياء. وقتلهم يبقى خالدًا في الذَّاكرة الجماعيّة.

ج. قتل آل فرعون لأبناء بني إسرائيل

- ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾[١].

صوّر الفعل المضارع المزيد بالتَّضعيف ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ التَّضايفَ المتعاليَ بكثرةِ القتل الذَّريعِ الذي كان يمارسه آلُ فرعون ضد أبناء بني إسرائيل؛ فحقَّ أنْ يتَّصفوا بالقتلة المجرمين حتى قطَّعوا أواصرَ الأبوّة والأمومة بين بني إسرائيل وأبنائهم؛ إذ كانت علاقةُ القتل سببًا في التَّفريق بين كلّ ابن وأبويه. فاعتدوا على تلك الرَّوابط القائمة على الرَّحمة بين الآباء والأبناء. ما رسّخ مفهومَ القتل كلّما اُسْتُحْضِرتْ ذكرى فرعون وقومه. وقد أنجى اللّه بني إسرائيل منهم ما فتح الأفقَ الرَّحيبَ أمامهم؛ ليُعيدوا بناءَ علاقةِ الأبوّة، فيتوالدوا في عصر موسى عليه السلام.

ح. قتل بعض النَّاس لأولادهم

- ﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴾[٢].
- ﴿ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾[٣].

يتمثّل القتلُ في الآية الأولى بجريمة الآباء الجاهليين الذين قضوا على رابطة الأبوّة بقتلهم بناتهم من غير سبب. فقد تشكّلت تلك العلاقاتُ من القتل بين البنات البريئات والآباء القساة في أجواء الجهل والتَّعصّب الأعمى. والعلاقةُ نفسُها تتخذ صورةً

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤١.
(٢) سورة التكوير، الآيتان: ٨-٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٠.

أخرى في الآية الثَّانية بقتل الآباء المشركين لأولادهم بسبب الجهل والضَّلال.

وإنَّ الفعل (قتل) يتقدّم على المتضايفينِ محقَّقًا من فاعله الذي يتقابلُ مع المقتولينَ: القاتلون والمقتولون. ليُزيل علاقةً سابقةً (الأبوة) التي كانت بينهما. وتحمل معنيين متضايفين: الآباء والأولاد. هكذا يقوم الإنسانُ بتوليد علاقاتٍ متعدّدةٍ؛ لامتلاكه الحريةَ في اختيار الفعل الذي يُنتج علاقاتٍ قد تتناقضُ فيما بينها. فتحلُّ إحداها محلَّ الأخرى عندما تنتهي العلاقةُ السَّابقةُ بظهور العلاقةِ الجديدةِ.

الفصل الثالث:

نسق التَّضايف

ماهيّة النَّسق

يعني النَّسقُ في الدَّرس اللّساني: «ما يحكم العلاقة بين العناصر اللسانية ومستوياتها، ويربط بعضها ببعض هو ما يطلق عليه النسق... وفي المقابل قد يشكل كل مستوى من هذه المستويات نسقا داخل النسق العام للسان، وحينها يمكن الحديث عن النسق الصوري أو النسق الصرفي أو النسق النحوي أو النسق المعجمي داخل نسق ما، ويرادف النسق هنا- مصطلح التضايف... أو مصطلح البنية. فالنسق يشير أيضاً- إلى مجموعة من القواعد التي ترتبط فيما بينها»[1].

ويمكن أنْ نتعاملَ مع النّسقِ في هذه الدّراسةِ بأنَّه المعنى العام الذي يتكوّن من مجموعةٍ من علاقاتِ التَّضايف، وتتكوّن كلُّ علاقةٍ معنويةٍ من طرفين حين تتفاعل المعاني المتضايفة بعضُها مع بعضٍ في القرآن؛ لتُؤلّف نسقًا دلاليًّا متضايفًا يظهر في سياق لغوي متَّصل؛ لـ«وجود وحدات دلالية أولية... منتظمة في محاور تطابقية تسهم في بناء كل المدلولات»[2].

(١) القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة - أحمد يوسف: ١٢٠.

(٢) العلامة تحليل المفهوم وتاريخه - أمبرتو إيكو: ١٥٨.

والبحثُ عن النَّسق المتضايف وتشخيص مكوناته الدّلاليّة ومركباته اللغويّة يُنتج معرفةً معمَّقةً بدلالة النَّص، ويُزيد المتلقيَ فهمًا بمضمرات معانيه؛ لـ «إنّ الاختلاف أو التقابل بشكل عام هو النسق الأهم في اللغة والذي يرفعها من المستوى الميكانيكي المتمثل في تسمية الأشياء في الواقع وترتيبها في علاقات قواعدية إلى مستوى ديناميكي يتمثل في القدرة على الغوص في أعماق الأشياء وإدراك حقيقة ارتباطها بعضها ببعض»[١].

ويمكن أنْ يُعطى كلُّ نسقٍ واردٍ في النَّص القرآني مصطلَحه الذي يُطلق عليه من المعنى المحوري للعلاقة الأقوى للتَّضايف التي تؤثر في توليد علاقات تضايفٍ جديدةٍ للسّياق اللغوي التي يتجلّى فيه ذلك النَّسقُ حتى تتسقَ أسماءُ النَّسقِ وأفعالُه مع محتوياتها الدَّلاليّة المتقابلة. ومن أبرز السَّور التي بُنيت على أنساقِ التَّضايف ما يأتي:

سورة الفاتحة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٢].

تحتوي بنيةُ السُّورة علاقاتِ تضايفٍ في كلّ آيةٍ منها. تشكّل نسقًا متلاحمًا للتَّضايف بين الرَّحمن الرَّحيم وخلقه. يبدأ بعلاقتين من

(١) تأملات في فلسفة اللغة خصوصية اللغة العربية وإمكاناتها: ١٣١.

(٢) سورة الفاتحة، الآيات: ١-٧.

الرَّحمة في صفتي الرَّحمن والرَّحيم من البسملة، فالرَّحمنُ يتضمّن الرّحمة العامة الكثيرة التي تنشأ من هذا الاسمِ الإلهي الذي يتضايف مع جميعِ المخلوقات التي تصلها الرَّحمةُ من حقيقةِ هذا الاسم. ويتضمّن الاسمُ الرَّحيم معنى الرَّحمة الثَّابتة الخاصة بصنف من النَّاس الذين تحلّوا بالإيمان[١]، فيكون هذا الاسمُ رحيمًا عندما ينشر رحمتَه على المرحومين عندما تتحقّق فيهم علاقةُ الإيمان به تعالى.

ويُعطي المصدر «الحمد» تضايفًا بين الحامد والمحمود الذي يستحقّ ذلك الحمدَ؛ كونه ربًّا وهو حمدٌ شاملٌ كلَّ حمدٍ؛ لـ «أنّه تعالى محمود على جميل أسمائه ومحمود على جميل أفعاله، وأنّه ما من حمد يحمده حامد لأمر المحمود إلا كان للّه سبحانه حقيقة لأن الجميل الذي يتعلق به الحمد منه سبحانه، فللّه سبحانه جنس الحمد وله سبحانه كل حمد»[٢].

والربُّ يشير إلى تضايف الرّبوبيّة بين الربّ والعبد، وله معنى شاملٌ كلَّ مربوبٍ ممكن «فهو تعالى ربّ لما سواه؛ لأنّ الربَّ هو المالك المدبّر وهو تعالى كذلك»[٣]. وله الحمدُ لرحمته بخلقه النَّاشئة من اسميه: الرَّحمن الرَّحيمً. واسم المالك الدَّال على تضايف المالكيّة بينه ويوم الدّين عندما تتجلّى مالكيتُه لذلك اليوم، فلا مالكية لغيره.

وينشئ الإنسانُ علاقاتٍ واقعيّةٍ مع ربّه تتمثّل بالعبادة. وهي علاقة بين العابد والمعبود ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والاستعانة ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بين

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١/ ١٨.
(٢) ينظر: نفسه: ١/ ١٩.
(٣) نفسه: ١/ ٢١.

المستعين والمستعان. والهداية التي يرجو العابدُ أنّ تتحقّق بدعائه «اهْدِنَا» وهي إضافة بين الهادي والمهدي إلى الصّراط المستقيم الذي وصل إليه بعضُ النَّاس عن طريق علاقة الإنعام «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» القائمة بين المنعم والمنعَم عليهم الممتازين عن المغضوب عليهم الذين وجدت بينهم وربّهم علاقة الغضب.

سورة يوسف

تشتملُ السُّورةُ على نسقِ الرّبوبيّة والعداوة، ويتكوّن هذا النَّسقُ من علاقتين متضادتين رئيستين تؤلفان مجموعةً من علاقات تضايف فرعيةٍ، تتصل إحداها بالأخرى بدلالات متعاكسة؛ لتأليف البناء اللغوي للنَّص. ومن النّصوص التي بُنيت على التَّضايف المتعدّد قصة النَّبي يوسف عليه السلام. وشخصيته الغنيّة بالمعاني والصّفات قد ارتبطت بشخصيات أُخر بوساطة تضاد دلالي منعكس، فتجلّى النَّص القصصي الآتي:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ ۞لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ

إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1].

ينبغي أنْ نشخص البنيةَ اللغويّةَ المعبّرةَ عن تلكما العلاقتين المتقابلتين وهما: (الرّبوبيّة والعداوة) كي نستطيع متابعةَ علاقاتهما الفرعيّة. فالأولى تظهر بدايتها برؤيا يوسف عليه السلام الدَّالة على تضايفٍ بين الرائي والمرئي، «وهي بشرى له تمثّل له ما سيناله من الولاية الإلهية... ومن هنا تبتدئ التربية الإلهية له»[2]. وعلم بذلك أبوه يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾. والثّانية تظهر في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

ويبدأ النَّسقُ الدَّلالي من علاقة الأبوّة الحميمة بين متقابلين: يوسف وأبيه، وهي علاقةٌ طبيعيةٌ تنشأ في ظلّ علاقةِ الرّبوبيّة. وتَقَدّمَ الابنُ على أبيه في سياق الحكي الذي يباشر فيه يوسفُ عليه السلام الابنُ نقلَ الرؤيا لأبيه، فتزداد الأبوةُ قوّةً ووفرةً في الظهور حين يُوصلُ الابنُ

(١) سورة يوسف، الآيات: ٤-١٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١١/ ٧٧.

المطمئنُ بأبيه رؤياه إلى الأب الحاني عليه الرَّؤوف به حتى بادله الحديثَ اللَّطيفَ بادئًا بنداء ولده باسم «يا بُنيَّ» الذي يُشعر بالحضور القريب للأب... الذي يحذّر الابنَ الحبيبَ من مكايد إخوته.

وبهذا التَّحذيرِ ينقلنا النَّص إلى علاقةِ الأخوة بين يوسفَ وإخوته التي يُنبئ الأبُ عنهم حين سيقومون بإنشاء علاقةٍ جديدةٍ تتمثّل بالكيد. فهم الكائدون ويوسف المكيد. وهي علاقةٌ سلبيّةٌ تكاد دوافعُها تقضي على علاقةِ الأخوة بينهم حتى يكادوا أنْ يقتلوا أخاهم؛ لوجود علاقةٍ خفيّةٍ تعمل على إيجاد العلاقات السَّلبيّة دائمًا بطرق شتى يجعلها النَّص واضحةً للجميع، وهي العداوةُ بين النَّاس والشَّيطان.

فإنَّ طرفَها الخفي «الشَّيطان» الذي لا نراه، ولا نسمع له صوتًا... ﴿ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يدفع الإنسانَ إلى قطعِ الرَّوابط الإيجابيّة وإيجاد روابط سلبيّة حتى تستوليَ العداوةُ على الإنسان ما استطاع الشَّيطان إلى ذلك سبيلًا. «فيُفسد ما بين الوالد وولده وينزع بين الشقيق وشقيقه ويفرق بين الصديق وصديقه ليضلهم عن الصراط»[1] ويستمر الأبُ يعقوبُ عليه السلام بسرد الأحداث التي ستحصل ليوسف عليه السلام. وهي أحداثٌ مستقبليّةٌ تؤلّف بعضُها مع بعض ثنائياتٍ من التَّضايفِ تتمثّل بالاصطفاء للنّبوّة ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾.

فهذا المرَّكبُ النحوي يدلُّ على المجتبي الربّ والمجتبى يوسف، والاجتباء علاقةٌ بين طرفين «وفيه سلوك وحركة من الجابي نحو المجبّي فاجتباه اللّه سبحانه عبدًا من عباده هو أنْ يقصده برحمته

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١١/ ٧٩.

ويخصّه بمزيد كرامته»[١]، وكذلك الفاعل ﴿ رَبُّكَ ﴾ يوحي بعلاقة الرّبوبيّة المتكوّنةِ من طرفين: الربّ والمربوب.

فإنَّ علاقةَ الرّبوبيّة العميقةَ ستزيل العلاقاتِ الظاهرةَ بين يوسف وأخوته من بنية النَّص لاحقًا... فيتلاشى الكيدُ ومحاولةُ القتل وغيرهما. وستبدأ علاقةُ الرّبوبيّة تعمل على خلق علاقات قوّية كالتَّعليم الإلهي﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ وهو معنى تضايفي لطيفٌ بين المعلّم والمتعلّم موضوعُه خفيٌّ يجعله المعلّمُ جليًّا أمام أنظار المتعلّم، فيكون عالمًا بشطر ﴿ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾.

وتُوجِدُ علاقةُ الرّبوبيّة أعلى علاقةٍ بين الربّ ويوسف متمثّلة بإتمام النّعمة عليه وعلى ذريته من الصَّالحين المصطَفّينَ للنبوة ﴿ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ ﴾ وهذه العلاقةُ كانت حاضرةً مع الأنبياء عليهم السلام من آباء يوسف عليه السلام، فقد أتمَّ اللّهُ عليهم النّعمةَ ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ ﴾.

وهي علاقةٌ ممتدّةٌ مع امتداد علاقةُ الأبوّة بين يوسف وإبراهيم وإسحاق. لذلك كانت الرّبوبيّةُ علاقةً مستحكِمةً في العلاقات الأُخر تتولّى تفعيلها وتوجيهها، فتخلق نسقًا مترابطًا من علاقات التَّضايف التي تتوالى في خطٍ مستقيمٍ يرسم لنا طريقَ الأنبياء وعلاقاتهم النَّاشئة من اتّصالهم العميقِ بربّهم.

ويُشير تحذيرُ يعقوبَ ليوسفَ بأنْ لا يقصصَ رؤياه على أخوتك إلى العداوة التي ستبدأ بينه وبينهم، وتحاول أنْ تُقيمَ علاقاتٍ جديدةٍ

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١١/ ٧٩.

كالقتل. فتتحرّك اللغةُ على لسانهم بالانحرافِ من العلاقةِ الطبيعيّةِ نحو علاقة العداوة حين ﴿ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ ﴾ فتجد كلامَهم يفصل بين طرفين: ﴿ يُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ و«نحن». في دلالة تفاضل في الحبّ تؤكّد الحصةَ الكبرى ليوسف وأخيه. «ويشعر بأنّ يوسف وأخاه هذا كانا أخوين لأم واحد وأخوين لهؤلاء القائلين لأب فقط»[1].

والحبُّ علاقةُ تضايف في إطار علاقةِ الأبوّة... إنَّهما علاقتان جميلتان إلا أنَّ العداوةَ تُنشئ قربَهما علاقةَ الحسد حين تمتلئ قلوبُ أخوة يوسف بالحسد لذلك الأخ الصغير الجميل الذي يعشقه أبوه لجماله ولعلاقته المعنويّة به التي كان يحسبها الأخوةُ ضلالًا وإفراطًا في الإيثار ومبالغة في العناية[2] دونهم ﴿ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾. ثم تشتدُّ العداوةُ من القولِ إلى رسم الخطط للكيد الذي أنبأ به يعقوبُ؛ لكي يتحقّق الفعلُ والتَّنفيذُ لعلاقة القتل ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا ﴾. ولولا تدخّل الرّبوبيّة؛ لصار يوسفُ مقتولًا وأخوته قتلةً غير أنّهم اختاروا إلقاءَ يوسفَ في الجبّ. وتتدخل علاقةُ الرّبوبيّة في إنقاذِ يوسفَ من الجبّ، فتأتي قافلةٌ. وتستخرجه من الجبّ. فتنشأ علاقةٌ جديدةٌ، وهي الشّراءُ، فيصير يوسفُ المشترى والسَّيّارة هم المشترون، والبائعون.

إنّها علاقة بين طرفين: البائع والمبيع الصَّبي يوسف الضَّحيّة للكيد الذي يقوم به الإنسانُ وإنْ كان أخًا لمن يكيد به؛ لأنّ الإنسانَ يمتزج

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١١/ ٨٩.

(٢) ينظر: نفسه: ١١/ ٩٠.

في علاقة العداوة الشّيطانيّة التي لا ترى أيَّ قيمةٍ لكلّ علاقةٍ سوى علاقةِ الأنا التي تؤسس علاقاتٍ تعزّز رغبات الأنا التي لا حدَّ لها.

إنّه مشهدٌ غيرُ متوقعٍ من أبناء النَّبي الصَّالح أنْ يفعوا هذا الفعل، ما يدفع القارئَ إلى التَّفاعل النَّفسي مع ذلك الصَّبي الوحيد في الجبّ. فما كان يفعل ؟!!!. فكان أنْ تتفاعل الأسبابُ؛ لإنقاذه من هذا الموقف المشرِف على الموت. ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾[1].

وتظهر قدراتُ الرّبوبيّة بتحويل علاقة العبودية الاعتباريّة بين يوسفَ والمالك الذي اشتراه إلى علاقة تضايفٍ جديدةٍ تتمثّل بإكرامه للتّمهيد إلى علاقةٍ ثانيةٍ تتمثّل بالأبوة حين يتّخذه عزيزُ مصر ابنًا له. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2]. وتتكاثر علاقاتُ التَّضايف بين يوسف وربّه من التَّمكين في الأرض، وتعليمه تأويل الأحاديث، وإيتائه الحكم والعلم.

وفي ظلّ عناية الرّبوبيّة التي يتمتع بها يوسفُ تتسلّل العداوةُ قريبةً منه؛ لتُوجد علاقةً جديدةً ماكرةً بينه وبين امرأة العزيز في إطار علاقة الكيد الذي يحاول أنْ يخطط ويُحكم خطتَه، ليصنع موقفًا عسيرًا

(١) سورة يوسف، الآيتان: ١٩-٢٠.

(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٢١-٢٢.

على يوسف في جبّ الجنس بعد أنْ أُخرج من جبّ الماء. فتحاول امرأةُ العزيز أنْ تلقيَه فيه. ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[1].

وقد نجا يوسفُ ثانيةً بتأثير علاقته الرَّاسخة الرّبوبيّة ﴿رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فهو مربوبٌ يرى برهانَ ربّه تعالى الذي يُعطيه ذلك البرهانَ، ويصرف عنه السَّوءَ والفحشاءَ، فيبعدهما عنه؛ لأنَّه يعيش حياةً عنوانها أعلى درجات الإخلاص، فمن الرّبوبيّة تنشأ علاقةُ الإخلاص بين الطرفين: المخلِص والمخلَص. الربّ يُخلص العبدَ بعد أنْ أخلص العبدُ للربّ. والعبدُ المخلِّصُ يمتنع من الدّخول في السّوء والفحشاء فضلًا عن المراودة.

فتضايفُ الرّؤية للبرهان مانعٌ السّوءَ والفحشاءَ بفاعليّة الربّ على الأشياء. و«لما كان من عبادنا المخلصين صرفنا عنه السوء والفحشاء بما رأى من برهان ربه، فرؤية برهان ربه هي السبب الذي صرف اللّه

(١) سورة يوسف، الآيات: ٢٣-٢٨.

سبحانه به السوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام»[١]. ولم تنتهِ محاولاتُ العداوة من الشَّيطان عن أنْ تلاحق يوسفَ، وترصده، فتطفو حالةُ المكر والكيد على السَّطع، وتنتشر بين نساء الملأ في قصر عزيز مصر، وتعدُّ امرأتُه عدّتها مع نساء القوم.

فيتعالى منهنَّ صوتٌ واحدٌ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[٢].

وينقل يوسفُ إلى السّجن، فيكون مسجونًا مختارًا سجنَه. و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

ويستجب اللّه تعالى دعاءَه بصرف كيدِهنَّ عنه. فعلاقةُ الاستجابة

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١١/ ١٢٧.
(٢) سورة يوسف، الآيات: ٣٠-٣٢.
(٣) سورة يوسف، الآيات: ٣٣-٣٦.

بين المستجيب «رَبُّهُ» والمستجاب له «يوسف» أثمرتْ علاقةَ الصّرف بين الصَّارف وذلك الكيد المصروف بتأثير صفات السَّمع للدّعاء المسموع، والعلم بحالِ الدَّاعي وبطريقة خلاصه من الكيد. وتبدأ فرصةُ الخروج من السّجن، فيخاطب يوسفُ عليه السلام أحد المسجونين. ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾[1]. ليكون مذكورًا أمام الملك غير أنّ الشَّيطان نفسَه يتدخل لمنع ذكره بإيجاد نقيض الذّكر وهو النّسيان، فكان يوسفُ منسيًّا، وكان صاحبُ السّجن ناسيًا والشَّيطانُ مُنسِيًا صاحبَ السّجن النّاجي. فقد أوجد الفعلُ الشَّيطاني «أَنْسَاهُ» علاقةَ تضايف أثرت في بقاء يوسفَ مدةً في السّجن.

ثم تعود المعاني النَّصيّةُ إلى حلقة الكيد؛ لينكشفَ الفاعلُ الحقيقي للمراودة باعتراف امرأة العزيز ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[2]. ويمنع الفعلُ الإلهي أثرَ الكيد في القصة بعدم هدايته، فلا تحصل علاقةُ تضايف الهداية بين اللّه تعالى وكيد الخائنين.

وتظهر علاقةُ الأخوة في مصرَ بعد غيابٍ أثّر في المعرفة بين طرفي الأخوة. ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾[3].

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٥١-٥٢.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٨.

ما ولّد علاقتين إضافيتين متناقضتين: معرفة يوسف لأخوته. فكان عارفًا لهم، وهم معروفون عنده. لكنّهم منكرون له وهو منكَرٌ عندهم. وبدأ يوسفُ يزيل علاقةَ الإنكار من أخيه الصَّغير عندما جاء به أخوته إلى مصر، مصرّحًا له بعلاقة الأخوة بينهما في قوله: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَٔيِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[١].

وتبرز علاقةُ الكيد الإيجابي من اللّه بينه تعالى وأخوة يوسف؛ لتمكين يوسف من أخذ أخيه بأنْ جعل السّقايةَ في رحل أخيه. إنَّ الكيدَ الإلهي سببٌ لتضايف «الأخذ» بين يوسف وأخيه، فحقّ ليوسف إبقاء أخيه معه...

﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾[٢]. وسمّي كيدًا لتحقيقه معنى أخذ يوسف لأخيه من غير علم أخوته به بإلهام من اللّه تعالى، ونسب الكيد إلى اللّه؛ لأنَّه ليس من الظلم[٣].

ويُنهي يوسفُ علاقةَ الإنكار لدى أخوته، مصرّحًا لهم باسمه وبعلاقة الأخوة بينه وأخيه في قوله: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٤]. وتبرز علاقةُ الأبوّة عندما يصل أبوا يوسفَ إلى

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١١/ ٢٢٥.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

مصر، فيرفعهما فوقَ عرش الملك. ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

وتصفو علاقةُ الأخوة من جديدٍ في ظلّ الجعل الإلهي الذي يهيمن على الأحداث، ويقضي على محاولات المكر والكيد ونزغ الشَّيطان... ويجتثُ كلَّ العلاقات الدَّاخلة في علاقة العداوة المضادة للرّبوبيّة وعلاقاتها الفرعيّة. وتسير الأمورُ حتى تقفَ عند ساحل الحقيقة التي رآها يوسفُ في عالم المنام. وتحقّقت في عالم الأرض بسلطة الحقّ تعالى الذي أفاض الخيرَ الكثيرَ على نبيّه يوسفَ الذي عبّر عن علاقاته التَّفاعليّة مع ربّه.

إنَّها علاقةُ ربّ ومربوب ولّدت علاقات تضايف... علاقة إتيان الملك ليوسف، وعلاقة تعليمه تأويل الأحاديث ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[2].

سورة فصّلت

يباشرنا النّص بمعنى متضايفٍ مفهوم من دلالة المصدر «تَنْزِيل» الذي يستوجب معنيين متقابلين هما المُنزِل وهو الرّحمن الرّحيم، والمُنزَّل وهو القرآن العربي. والتَّنزيل يخلق نسقَه في السُّورة الذي

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

يتولّد منه نسقُ الإيمان بالمنزَّل ونسقُ الكفر به في آيات السُّورة التي تشرح ذلك التَّنزيل في بدايتها: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[1].

ولمّا تمَّ تنزيلُ القرآن بيّنَ منزّلُه أنَّه كتابُه ومرتبطٌ به في علاقة التَّفصيل المعلومة من الفعل ﴿فُصِّلَتۡ﴾. وهذا التَّفصيلُ يؤكد فعليةَ المفصِّل وتجلي فعله في كتابه الذي يؤسّس علاقاتٍ معنويّةً مع متلقيه بالتَّبشير للمؤمن به، والإنذار للكافر به. ما أنتج مواقفَ متعدّدة حوله، فابتعد أكثرُ النَّاس عنه، وعن مبلغه الذي هو الدَّاعي إلى محتواه، فكان هناك اتصالٌ معنوي بين الرَّسول ﷺ والنّاس في علاقة الدّعوة بين الدَّاعي والمدعوين.

وتُعاد الإشارة إلى نسقِ التَّنزيل بمعنى متضايفٍ آخرَ يكشف نوعَ الإنزال في الخطاب: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2]. فذلك الكتابُ المنزلُ إنّما هو وحي، والوحي يحتاج إلى أمرين متضايفين: الموحي والموحى إليه. وقد تحقّق الوحي بوجود الخاتم الأعظم ﷺ القادر على تلقي الوحي من مصدره.

وقد تجلّى موقفُ الإيمان بالقرآن في الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(١) سورة فصّلت، الآيات: ١-٥.

(٢) سورة فصّلت، الآية: ٦.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾[١]. فمن علاقة الوحي ببعض النّاس، وتنزيله عليهم ظهر الإيمانُ به. وتجلّى مع الإيمان والاعتقاد العملُ، وهو نسبة تضايف تتألّف من العاملين والمعمولات أو الأعمال الصَّالحة التي هي مكونات دلاليّة في القرآن الموحى.

ثم ينتقل النّص إلى علاقة تضايفٍ متضادٍ مع الإيمان وهو الكفر: ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[٢]. وذلك الكفرُ علاقةٌ بين الكافر والمكفور به. فكان القرآن هاديًا يلحُّ على إزالة هذه العلاقة بالاستدلال على علاقة الإيمان بتبيين علاقات الفعل الإلهي مع الموجوداتِ كخلقِ الأرض وجعلِ الرواسي والمباركةِ وتقدير الأقوات وقضاء السَّماوات، وكذلك وحي أمورها وتزيين السّماء الدّنيا. كلُّ تلك التَّضايفات بين اللّه تعالى ومخلوقاته تشكّل نسقًا استدلاليًّا يحتجُّ على الكافرين باللّه بأنَّ الخلقَ ملازمٌ للخالق.

والجعل يُوجب الجاعلَ، والمباركة تستلزم المبارِكَ، والتَّقدير يفرض المقدِّرَ، والقضاء يحتاج إلى القاضي، والإيحاء يتطلب الموحيَ، والتزيين دالّ على المزيّن. ويأتي بعد الاستلال على الخالق

(١) سورة فصّلت، الآية: ٨.

(٢) سورة فصّلت، الآيات: ٩-١٢.

الإنذارُ من الرّسول ؛ لتتحوّلَ معاني التَّضايف من النَّص الموحى إلى الواقع: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1]. فتظهر علاقةُ الإنذار بارزةً في الفعل «أَنْذَرْتُكُمْ» فكان الرَّسول منذِرًا وهم منذرَون.

ويستعيد النَّص القرآني تجلياتِ الإنذار في الأقوام السَّابقة بصورٍ متعدّدةٍ تنطوي تحت تضايف الإرسال المنصوصِ عليه في الفعل «أَرْسَلْنَا» المشكّل للعلاقة بين اللّه المرسِل والمرسَل الرّيح الصَّرصر ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[2]. وهذا يؤدي إلى تضايف آخر يمثّل السَّببَ في تضايف الإرسال وهو الإذاقة القائمة بين طرفين: المذيق هو المرسل للعذاب، والذَّائق الأقوام، والمذاق العذاب في الدَّنيا مع الإشارة إلى وجود علاقة في العذاب نفسه؛ فهو مبتنٍ على معذِّب ومعذَّب الذي يشتدُّ عذابُه في عالم الآخرة. وتظهر آثار تضايف الإيمان في علاقة النَّجاة بين المؤمن والخالق (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) وتقابلها آثارُ تضايف الكفر في علاقة العداوة بين الكافرين واللّه تعالى وعلاقة الحشر إلى النَّار ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[3].

(١) سورة فصّلت، الآيتان: ١٣-١٤.

(٢) سورة فصّلت، الآيتان: ١٦-١٧.

(٣) سورة فصّلت، الآية: ١٩.

وتتوالى آثارُ الكفر بالكتاب المنزَّل بظهور علاقاتٍ من التَّضايف في النَّص: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[1].

وهي التَّقييضُ المكوَّن من المقيِّض والمقيَّض من القرناء، ويُشير وصفُ القرناء إلى علاقة تضايفٍ بينهم ومَنْ يقترون بهم من الكفرة، فتتولّد بينهما علاقةُ التَّزيين لوجود علاقة الاقتران ثم يتزايد المعنى الإضافي بين الكافرين ومعذّبهم نتيجةَ كفرهم بالقرآن المنزَّل بتجلّي علاقة الإذاقة للعذاب الشَّديد والكافرين الذَّائقين له. وعلاقة الجزاء بيهم وأسوءِ أعمالهم؛ لارتباط العمل بعامله.

ويتوّلى القرآن تبيينَ آثار نسق الإيمان بتنزّل الملائكة على المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[2].

وتحقّق علاقةُ الولاية بينهم والملائكة المفهومةُ من الاسم ﴿أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ ومفرده وليّ بنيته فعيل وهي صيغة مبالغة من فعل متعدّ

(١) سورة فصّلت، الآيات: ٢٥-٢٨.

(٢) سورة فصّلت، الآيات: ٣٠-٣٢.

يتضمن طرفين وهما المؤمنين والملائكة. وتتحقّق رغباتُ المؤمنين في الجنة، فتحضر مشتهياتُهم التي لها علاقةُ الاشتهاء بينها والمؤمنين الذين يرون ما يشتهون لديهم نتيجةَ علاقة الإيمان الفاعلة في إيجاد رغبات المؤمن في العالم الآخر.

ثم ينتقل النَّص من نسق الإيمان إلى نسق الكفر المقابل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ۝٤٣ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾[1].

ومازال الكفرُ معنًى متضايفًا بينهم والقرآن. وهو الكتاب الذي له عزّةٌ تمنع الباطلَ من الاقراب منه. وله ارتباطٌ شديدٌ بمنزّله المشارُ إليه بالمصدر «تَنْزِيلٌ» فهو كتابٌ شأنُه أنْ يكون منزَّلًا من موجودٍ حكيمٍ حميدٍ يسمو على أيّ كتابٍ. ويتمتع هذا الكتابُ بعلاقاتٍ مع خالقه ومع متلقيه في نسق تنزيله، علاقاتِه مع الجهة العليا بأنْ يكونَ معرّفًا لها مبيّنًا صفاتِها وأفعالَها.

وعلاقاتِه مع النَّاس بأنْ يكونَ هاديًا لهم وشافيًا من الأمراض النَّفسيّة، وعليهم أنْ يكونوا مهتدين بفكره ونوره، ومشافين بدوائه وبالسَّكينة والاطمئنان بحقائقه. وهذا القرآنُ المكتوبُ له تلك الآثارُ والعلاقاتُ الكثيرةُ عندما يتّصل به الإنسانُ.

(١) سورة فصّلت، الآيات: ٤١-٤٤.

فيكون إمّا مؤمنًا به، ويؤثر إيمانُه في خلق آثار واقعيّة بين القرآن والمؤمنين به علاقات ماديّة ومعنويّة يمكن فهمُ الكثير منها بدراسة النّصوص الحاكية عن موقف المؤمنين من القرآن وعلاقاتهم به وتصوّرهم عنه... وإمّا كافرًا به تستتبعه بالضرورة علاقاتٌ متعدّدةٌ تجدُ لها مظاهرَ في حديث القرآن عن موقف الكافرين منه... وتختم السُّورة حديثَها عن نسقي الإيمان والكفر الناتجين عن نسق الإنزال بأنَّ اللّه يُوجد علاقةً شاملةً هي الرّؤية الكونيّة والرؤية الأنفسيّة مع النَّاس حتى يعلموا الحقَّ... اللّهَ تعالى حقيقةً يجب الإيمانُ بها. ويفهم وجودُه وتُعلم صفاتُه الدَّالة على تعلّق خلقه به بأنواع العلاقات ومنها شهوده وحضوره وإحاطته بالأشياء كلّها ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴾[1].

سورة الشُّورى

تبدأ السُّورةُ بتضايفِ الوحي المفهوم من الفعل «يُوحِي» ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2]. ويقرّرُ تعدّد علاقات الوحي بنسبته إلى جميع الأنبياء، فكلُّ واحدٍ منهم يرتبط بوحي خاص مع اللّه تعالى.

ويستقلُّ الرَّسول ﷺ بوحيه الخاص في سياق تعيين الموحى القرآن ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا

(١) سورة فصّلت، الآيتان: ٥٣-٥٤.

(٢) سورة الشّورى، الآية: ٣.

وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[١]. ليُنشئ علاقةَ الإنذار الذي له نسقٌ مضمرٌ يُفهم من سياقه الخارجي الذي استمر الرَّسولُ بإنجازه في مكة والمدينة، فقد كان حريصًا على الإنذار الذي يتفاعل فيه الرَّسولُ مع المنذَرين، وذلك الإنذارُ يتكرّر بتكرار نسق الوحي وتنزيل القرآن، فكلّما أُوحي شيءٌ من القرآن أنجز الرَّسولُ الإنذارَ به بالتبليغ. وتظهر للإنذار جهةٌ أخرى تتمثّل بإنذار النَّاس يومَ القيامة.

وذلك الوحي الذي له ارتباطٌ بالموحى إليهم من الرّسل أسهم في توليد علاقة تشريع الدّين مع المشرِّع الإلهي ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٢]. وذلك الشَّرعُ يتعدّد بعدد أصحاب الشَّرائع التي تكوّنت لها علاقاتٌ من التَّوصية بين اللّه تعالى وأصحابها: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى. فكان اللّهُ سبحانه يُوصيهم بتبليغ الدّين الإلهي. ويظهر الوحي بفعل الإنزال الذي يدلُّ على تضايفٍ بين المنزِل والمنزَل: اللّه والكتاب ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[٣].

ثم يعدّدُ النَّص أشكالَ الوحي في ما يأتي: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا

(١) سورة الشّورى، الآية: ٧.
(٢) سورة الشّورى، الآية: ١٣.
(٣) سورة الشّورى، الآية: ١٧.

يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾[1]. ويمثّل هذا التَّنوّعُ في التَّكليم علاقاتٍ معنويّةً بين اللّه تعالى ورسله.

فتارة يظهر بشكل وحي بينهما. ويتضمن المصدرُ «وَحْيًا» علاقاتٍ دلاليّةً كثيرةً بين الموحي والموحى إليهم. وتارة أخرى يظهر التَّكليمُ من وراء حجاب بين طرفي علاقةَ التَّضايف. ومرة ثالثة يكون التَّكليمُ بعلاقتين: إرسال الملك إلى المكلَّم من البشر وهي علاقةٌ متقدّمةٌ يتلقى الملكُ العلمَ من اللّه تعالى ثم يُوحي إلى النَّبي بتحقّق علاقة الإيحاء بين الملك والنَّبي. ثم يخصّصُ الخطابُ الإلهي الإيحاءَ إلى الرَّسول محمد ﷺ، وهو علاقةٌ تتحقّق بوجود الرّوح الموحى إلى الرَّسول.

ويختم النَّص نسقَ الوحي والتَّنزيل بالغاية منه. وهي علاقةُ الهداية التي تتحقّق بشيئين: الهادي وهو اللّه تعالى والمهديين من النَّاس. وتكون هذه الهدايةُ عن طريق الوحي الذي محورُه القرآنُ المتَّصف بالهدى للنّاس الذي يهدي مَنْ آمن به. ويتجلّى الهدى الإلهي بالرَّسول القادر على هداية المستعدين للإيمان بكتابه. وتتحقّق الهدايةُ بالرَّسول وكتابه ووجود الطريق المستقيم الموصل إلى الحقيقة.

(١) سورة الشّورى، الآيات: ٥١-٥٣.

سورة التكاثر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1]. البنية الدَّلاليّة للسّورة قائمة على التَّضايف الذي يشكّل نسقًا موحَّدًا في علاقاته الآتية:

١ ـ الإلهاء معنى يقع بين اثنين المُلهِي: التّكاثر في العدد. والملهَى: النّاس الذين يفتخرون بعددهم وكثرة أفرادهم.

٢ ـ الزّيارة وهي تضايف بين الزَّائر ين الملهَون والمزور المقابر.

٣ ـ رؤية الجحيم علاقة بين الرائي والمرئي تحدث بسبب علاقة علم اليقين.

٤ ـ السّؤال علاقة بين السَّائل والمسؤول متعلقة بالنَّعيم.

فهذا النَّسقُ من علاقات التَّضايف كوّن الدَّلالةَ العامةَ للسّورة في تبيين حقيقة هؤلاء الذين وقعوا في فخّ الإلهاء والغفلة والتَّعلّق بكثرة العدد قد حجبوا أنفسَهم عن رؤية اليقين والواقع بسبب التَّكاثر بالعدد الذي مصيرُه الدَّفنُ في القبور، والدّخولُ في عالم الآخرة الذي تُرفع فيه الحُجُبُ. ويرى هؤلاء أمامهم الجحيمَ حاضرةً، ولم ينفعهم ذلك الجمعُ الكثيرُ ويقفون للسؤال عن النّعيم الإلهي الذي لم يشكروه بسبب تلك الغفلة والاعتزاز بكثرتهم الواهية.

(١) سورة التكاثر، الآيات: ١-٨.

سورة الهُمزة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾[1].

تتكون علاقاتُ النَّسق ممّا يأتي:

١ ـ الهمز تضايف مفهوم من صيغة المبالغة ﴿هُمَزَةٍ﴾ يقع بين الهامز والمهموز. ويتضمن كثرةً في علاقاته الحادثة بين الفاعل والمفعول.

٢ ـ اللّمز تضايف مفهوم من صيغة المبالغة ﴿لُّمَزَةٍ﴾ يقع بين شخصين أحدهما يوقع الفعل على الثاني مع تعدّده وكثرته «فالمعنى ويلٌ لكلّ عيّابٍ مغتابٍ»[2].

٣ ـ الجمع معنى واقع بين الشخص الجامع والمال.

٤ ـ التَّعديد تضايف بين الشخص الجامع وماله.

٥ ـ الحسبان علاقة بين الشخص الحاسب والمحسوب المال.

٦ ـ الإخلاد علاقة بين المال وصاحبه.

٧ ـ النَّبذ في النّار حقيقة سوف تقع بين النَّابذ والمنبوذ في النَّار.

---

(١) سورة الهُمزة، الآيات: ١-٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٣٥٩.

٨ ـ التَّحطيم والتَّكسير علاقة بين المحطوم المنبوذ والنَّار الحاطمة.

٩ ـ الإيقاد تضايف مفهوم من اسم المفعول ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ التي يقع عليها الإيقاد من موقِد.

١٠ ـ الاطلاع بين النّار والأفئدة «وكأن المراد من اطلاعها على الأفئدة أنها تحرق باطن الانسان كما تحرق ظاهره»[1].

١١ ـ الإيصاد والإغلاق بين النّار ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ وموصِد لها.

١٢ ـ التَّمديد بين الأعمدة ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ وممدِّد لها.

هذه العلاقاتُ من التَّضايف شكّلت المعنى العامَ للنَّص في وجود صنفٍ من البشر لهم صفاتٌ سلبيّةٌ تقوم بعلاقاتٍ مع آخرين توقعها عليهم كالهمز واللَّمز وجمع المال وكنزه وتعديده والحسبان والظَّن بأنّ ذلك المال يبقيه حيًّا خالدًا في هذه الدّنيا. والواقع غير ذلك تكشفه علاقاتُ تضايف أُخَر هي النَّبذ والطَّرح في النّار التي أعدّها اللّهُ تعالى لهم. وقد وجدت علاقاتٌ لتلك النَّار مع مَنْ أُعدَّتْ له. فهي تحطّم المنبوذَ فيها، ولها علمٌ بحقيقته واطلاعٌ على قلبه ونفسه. وللنَّار علاقاتٌ مع مَنْ أوجدها كإيقادها لزيادة العذاب، وإيصادها حتى لا يخرج منها أحدٌ. وتمديد أعمدتها وثباتها.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٣٦٠.

سورة الفيل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۢ﴾[1].

تتركّب معاني هذه السّورة من نسق تضايفٍ متسلسلٍ في كلّ آيةٍ حلقةٌ من حلقاته التي تظهر في المعاني الآتية:

١ ـ الرُّؤية العقلية معنى ذهني بين الرَّائي والمرئي أو العالم والمعلوم «والمعنى ألم تعلم كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل»[2].

٢ ـ الفعل بين فاعله اللّه تعالى ومفعوله أصحاب الفيل.

٣ ـ الرّبوبيّة بين الربّ والرَّسول محمد ﷺ المحال عليه بضمير المخاطَب.

٤ ـ المصاحبة بين الأصحاب والفيل المصحوب في الحادثة.

٥ ـ الجعل بين اللّه تعالى والكيد «وجعل كيدهم في تضليل جعل سعيهم ضالًا لا يهتدى إلى الغاية المقصودة منه فقد ساروا لتخريب الكعبة وانتهى بهم إلى هلاك أنفسهم»[3].

٦ ـ الكيد بين أصحاب الفيل والكعبة، وكيدهم هدم الكعبة.

---

(١) سورة الفيل، الآيات: ١-٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٣٦١.

(٣) نفسه: ٢٠/ ٣٦١.

٧ ـ الإرسال بين اللّه تعالى المرسِل والطَّير المرسَلة على أصحاب الفيل.

٨ ـ الرَّمي بالحجارة بين الطَّير الرَّامية والمرمَين بالحجارة.

٩ ـ الجعل بين اللّه تعالى الجاعل والمجعولين كعصف مأكول.

هذه العلاقاتُ بين كلّ طرفين أوجدت بنيةَ النّص الموجزةَ التَّامةَ التي تصوّر قدرةَ الربّ تعالى على عقوبة أصحاب الفيل على الرّغم من اجتماع شوكتهم وقوتهم بوجود فيلهم. فيتحكّم الفعلُ الإلهي بجعل كيدهم في ضلالٍ لا يصل إلى هدفهم، ولا يحقّق غايتَهم.

ومن ظرافة الفعل الإلهي أنْ أرسلَ اللّهُ الطيرَ تحملُ الحجارةَ؛ لتنجز رسالتَها برمي هؤلاء؛ ويتجلّى الفعلُ الإلهي والانتقامُ منهم بواسطة هذه الطّيور المسخَّرة؛ لأنَّ الفاعلَ الحقيقي والجاعلَ الواقعي هو اللّهُ تعالى، وما تلك الطّيورُ إلا واسطةٌ تحقّق من خلالها فعلُه تعالى، فصاروا مثل «ورق الزرع الذي أُكل حبُّه أو قشر الحب الذي أُكل لبُّه والمراد أنَّهم عادوا بعد وقوع السجيل عليهم أجسادًا بلا أرواح أو أن الحجر بحرارته أحرق أجوافهم»[1].

إنَّ النَّص القرآني قد تجلّت فيه صورٌ كثيرةٌ من التَّضايف المنسَّقة التي تُبرزُ ارتباطَ اللغة بعضِها ببعضٍ تحتَ تأثير مُنْزِلِه وتأثير أسمائه الحسنى بما لها من الوجود والقوة؛ فوصل النَّص القرآني إلى مرتبته اللّغويّة مُحْكَمًا بتأثير اسم جاعله قرآنًا عربيًّا ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٣٦٢.

لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[1]. وغير ذلك من الأسماء التي تؤثر في أسلوب كلّ سورةٍ وفي معناها العام، وتجدُ تلك الأسماءَ قد تبتدئ بها السّورةُ، فتكون حاكمةً على معاني السّورة ونسقِها أو قد تدخل بعضُ الأسماء في مناطقَ أُخرَ من السّورة؛ لتوجدَ فعليتَها في ذلك الموطنِ الذي ظهرت فيه.

وهذا يُشير إلى أنَّ حقيقةَ القرآن الواصلةَ إلينا بصورةٍ لفظيةٍ ثم صارت كتابًا ملموسًا أوجدتها الأسماءُ الحسنى وطبعتها بصفاتِها التي نحتاج إلى دراسةٍ نصيّةٍ تكشفُ النظامَ الرَّابطَ بين آيات كلّ سورة، وتبيّن العلاقاتِ الدّلاليةِ بين الآيات وتلك الأسماء الموجودة فيها، وتكشف ما يمكن كشفه من المعاييرَ النَّصيّةَ التي تُوجدها الأسماءُ الحسنى عند تكوينِ النّصوص وتجليها بصورٍ لغويةٍ مُعْجِزةٍ.

(١) سورة الزّخرف، الآية: ٣.

النتائج

هذه الدّراسة تتضمّن مفهومَ التَّضايف الدّال على علاقة ثنائيّة مبنيّة بين طرفين متلازمين بالضَّرورة التي تفرضها الإضافة. وقد انتشرت علاقاتُ التَّضايف في جميع سور القرآن الكريم ما يجعل القرآنَ يتحلّى بتركيزه على البنية الرَّابطة بين الخالق والمخلوق. ويمكن أنْ أجمل ما بان لي من هذا الموضوع في لغة النَّص القرآني فيما يأتي:

١ ـ التَّضايف علاقات نصيّة كثيرة دالة على حقائق وجوديّة بين الخالق والمخلوق كالخلق والرّزق والرّحمة والحفظ وغيرها. وتُؤسّس تلك العلاقات على أصالة الأسماء الإلهيّة بما لها من حقائق وجوديّة فاعلة في تجلّي طاقاتها في الواقع الخارجي. ولابدَّ من فهم العلاقات كافّة حتى يستطيع النَّوعُ الإنساني أنْ يعيَ طريقَه. ويُهيئَ مستلزمات إقامة ترابط وتضايف حقيقي مع الخالق على وفق حقيقة الأسماء الحسنى وما لها من صفات وأفعال تُنجز آثارَها على أساس قابليّة الإنسان على الارتباط بها والأخذ من كمالاتها.

٢ ـ هذه العلاقات تظهر في مجال الإنسان لما يتمتع به من قابلية على التَّحلي بصفات متنوّعة تجعله يقوم بعلاقات تضايف مع مجتمعه أفرادًا وجماعات. فتتولّد علاقات بينه وبين أفراد المجتمع كالصَّداقة والأخوّة والعداوة وغيرها.

وهذا الفهم يفرض على الإنسان تنظيمَ علاقاته الفردية والاجتماعيّة على نحو يُزيد في تحسين أحواله، وتكثير علاقاته في مجالات تطوّره وبناء مجتمعاته على أساس علاقات إيجابيّة مستوحاة من صفات خالقه الملهمَة في فطرته.

٣ ـ النَّص القرآني يبني أنساقَ تضايفه بلغةٍ واضحةٍ في سوره تُوحي بترابط علاقات التَّضايف معًا؛ لإنشاء كلّ مجموعة لنسقها الذي تتفاعل فيه بمعانٍ متنوّعةٍ بما لها من علاقات من السَّببيّة والتَّناقض والشّروط وغيرها.

٤ ـ تؤلّف علاقاتُ التَّضايف المعنى العام للنَّص القرآني.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأمثل في كتاب اللّه المنزّل ناصر مكارم الشيرازي دار إحياء التراث العربي، ط٢، لبنان ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
- اللّه والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم توشيهيكو إيزوتسو. ترجمة وتقديم د. هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، ط١. لبنان ٢٠٠٧م.
- البلاغة العربية قراءة أخرى د. محمد عبد المطلب. دار نوربار للطباعة، ط٢. مصر٢٠٠٧م.
- تاج العروس من جواهر القاموس محمد مرتضى الحسيني الزَّبيدي. تحقيق مصطفى حجازي، الكويت ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
- تأملات في فلسفة اللغة خصوصية اللغة العربية وإمكاناتها د. عمر ظاهر. دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع،ط١، لبنان ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم حسن المصطفوي. مركز نشر تراث العلّامة المصطفوي، ط١، إيران ١٣٨٥هـ ش.
- التعريفات علي بن محمد الجرجاني (ت٨١٦هـ) وضع حواشيه وفهارسه محمد باسل عيون السّود. دار الكتب العلمية، ط٢ لبنان ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م

- تفسير البصائر. يعسوب الدين رستكار الجويباري. المطبعة الاسلامية، إيران ١٤٠٣هـ.
- تفسير القرآن الكريم محمد بن إبراهيم صدر الدّين الشّيرازي (ت١٠٥٠هـ) تصحيح محمد خواجوي، انتشارات بيدار،ط٢، إيران ١٤١٥هـ.
- التَّقابل الدَّلالي «دراسة نظرية تطبيقية في سورة النَّساء د. نوال بنت إبراهيم بن محمد الحلوة - بحث منشور في كتاب علوم اللغة دراسات علمية محكمة مج ٩ ع٢، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع. مصر ٢٠٠٦م.
- توضيح منطق الشيخ المظفر - عمار محمد كاظم، مكتبة باقر العلوم عليه السلام بيروت - لبنان (د: ت).
- جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ويليه رسالة نقد النّقود في معرفة الوجود حيدر آملي. ترجمة جواد طباطبائي، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، لبنان ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
- الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة صدر الدّين محمد الشيرازي (ت١٠٥٠هـ) دار إحياء التراث، ط٣، لبنان ١٩٨١م.
- دقائق التصريف. أبو القاسم بن محمد بن سعيد المؤدب. تحقيق د. حات صالح الضامن. دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، دمشق - سوريا ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- شرح توحيد الصّدوق سعيد محمد بن محمد مفيد القمي (ت١١٠٧هـ) صحّحه وعلّق عليه د. نجفقلي حبيبي. مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط١، إيران ١٤١٥هـ.

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٨هـ) دار إحياء التراث العربي، ط٤، بيروت لبنان ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- الظاهراتية وفلسفة اللغة «تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية د. عز العرب لحكيم بناني. أفريقيا الشرق، المغرب ٢٠٠٢م.
- العلامة تحليل المفهوم وتاريخه أمبرتو إيكو. ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط١، لبنان ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
- علم الدلالة د. أحمد مختار. عالم الكتب، ط٥. مصر ١٩٩٨م.
- علم الدلالة أف. آر. بالمر. ترجمة مجيد الماشطة، وزارة التعليم العلي والبحث العلمي جامعة بغداد، مطبعة العمال المركزية، بغداد - العراق ١٩٨٥ م.
- علم الدلالة جون لاينز. ترجمة مجيد عبد الحليم الماشطة وآخرين، مطبعة جامعة البصرة. جامعة البصرة كلية الآداب، ١٩٨٠م.
- علم الدلالة «علم المعنى» د. محمد علي الخولي. دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن ٢٠٠١م.
- عين اليقين الملقّب بالأنوار والأسرار محمد ابن المرتضى محسن الكاشاني (ت١٠٩١هـ) تحقيق فالح عبد الرزاق العبيدي، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، لبنان ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
- القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة أحمد يوسف. الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، الجزائر ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
- مجمع البحرين فخر الدين الطريحي (ت١٠٨٥هـ)تحقيق أحمد الحسيني، مؤسسة التاريخ العربي، ط٢، لبنان ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

- معجم مقاييس اللغة أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، لبنان ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث ـ مصر ١٣٦٤هـ.
- مفردات ألفاظ القرآن الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ) تحقيق صفوان عدنان داوودي. منشورات ذوي القربى، ط٣. إيران ١٤٢٤هـ.
- المنطق محمد رضا المظفر. دار التعارف للمطبوعات، ط٣. لبنان ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.
- المنهج الجديد في تعليم الفلسفة محمد تقي مصباح اليزدي. ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني، دار الكتب اللبنانية، لبنان ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.
- مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن عبد الأعلى السبزواري. دار التفسير، ط٢، إيران ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
- الميزان في تفسير القرآن محمد حسين الطباطبائي. منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة، إيران (د ت).
- النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة «مبادئ وتحاليل جديدة محمد غاليم. دار توبقال، ط١ المغرب ٢٠٠٧م.
- الوعي اللغوي «الجمالي في فلسفة الكلام» دراسة منير الحافظ. دار فراقد، ط١. سوريا ٢٠٠٥م.